وزارة الثقافة والارشاد القومي
مديرية التأليف والترجمة



الرأي العام

تأليف : الفريد سوفي
ترجمة : الدكتور كامل عياد
مراجعة : الدكتور جميل صليبا

سلسلة الثقافة الشعبية ٧



وزارة الثقافة والارشاد القومي

مديرية التأليف والترجمة



تأليف : الفريد سوفي

ترجمة : الدكتور كامل عياد

مراجعة : الدكتور جميل صليبا

الناشر

دار دمشق

للطباعة والنشر والتوزيع

سلسلة الثقافة الشعبية

7

مقدمة

لا نكاد نقرأ جريدة أو نسمع خطاباً سياسياً إلا ونصطدم بذكر « الرأي العام » . ونرى كل كاتب يدعي بأن « الرأي العام » يريد كذا ويرفض كذا . ثم نلاحظ أن ما تنسبه إحدى الصحف إلى « الرأي العام » من مطاليب يتعارض مع الأماني التي تعلنها صحيفة أخرى باسم هذا « الرأي العام » نفسه . وما أكثر الأشخاص الذين يزعم كل منهم أنه وحده يمثل « الرأي العام » ويعبر ، دون غيره ، عن قصده .

وفي أغلب الاحيان لا نتحدث عن « رأي عام » موحد ، منسجم ، بل عن « تيارات » للرأي العام يخالف بعضها الآخر ، وتتناحر جميعاً وتتصادم . فكيف يتألف من هذه التيارات المتنافرة « رأي عام » واحد هو الذي تسعى الحكومات إلى تحديد اتجاهه ، ومراعاة رغباته والتأثير في إرادته ؟

وإذا رأينا جميع المشتغلين بالشؤون السياسية يحرصون على معرفة تيارات الرأي العام فذلك لأن « الرأي العام » يعد قوة سياسية خطيرة ، ولأنه ليس في استطاعة أي حاكم أن يمارس السلطة دون أن يحسب لهذا الرأي العام حسابه ويحصل على تأييده .

ولكن ما هي هذه القوة السحرية التي يخافها الحكام ويبذلون كل جهدهم للسيطرة عليها ؟ ما هو بالضبط « الرأي العام » ؟

إن الرأي عبارة عن وجهة النظر التي يبديها الشخص في أمر من الأمور . فهو حكم شخصي يختلف من فرد الى آخر ، كما إنه حكم مؤقت لا نتردد في التخلي عنه إذا تبدلت الظروف أو حصلنا على معلومات جديدة . وهذا الرأي يصبح عاماً عند ما يعلن عنه بطريقة من الطرق ويشترك فيه جمهور من الناس ، يزيد عددهم أو ينقص ، يعبرون به عن إرادتهم الجماعية .

الا أن الرأي « العام » يختلف عن الرأي « الفردي » في تكوينه ومظاهره وتأثيره . إنه مفهوم مركب ، شديد التعقيد ، يدل على معانٍ عديدة ويتضمن عناصر منوعة ويخضع لعوامل كثيرة . فهو يفيد أحياناً الرأي الذي يعلن عنه جهاراً بشتى وسائل الاعلام ، ويتجلى أحياناً أخرى في الشائعات التي يهمس بها أو في النوادر والنكت التي يتناقلها الناس . وفي المعتاد تعتبر الانتخابات النيابية الوسيلة الأساسية للكشف عن حقيقة الرأي العام . وهناك أساليب

ـديدة للاطلاع على اتجاه الرأي العام مثل طرائق « السبر »
، « الاستقصاء » و « الاستفتاء » و « الاستجواب » ؛ كما أن هنالك وسائل
كثيرة للتأثير في الرأي العام وتوجيهه من جرائد ومجلات ونشرات
ومن إذاعة وتلفيزيون وأفلام .

ومما يزيد في صعوبة معرفة الرأي العام أن هناك عراقيل كثيرة
تحول دون التعبير عنه ، وأنه ، على وجه العموم ، ينقاد الى العواطف
أكثر من العقل ويبتعد في الغالب عن الواقع ويتعلق بالأساطير
والعقائد الغيبية . وهو كثيراً ما يقع في أخطاء فادحة وينخدع
بسهولة وينفعل بسرعة – ولكنه ، على الرغم من كل ذلك ،
لا يندفع في طريق المغامرات ، ولا يحب الشدة والقسوة ، بل يميل
الى العدالة والانسانية ويتصف بالتأني والاعتدال ...

وقد عالج المؤلف الاستاذ (الفريد سوفي Alfred Sauvy) في
كتابه مثل هذه المسائل المتعلقة بالرأي العام ، فبين العناصر التي
يتألف منها والعوامل المؤثرة فيه ، وشرح لنا كيف يتطور ويتبدل
ثم وصف وسائل الإعلام وأساليب الدعاية ، وجاء بأمثلة متعددة
عن تيارات الرأي العام الكبرى في فرنسا منذ الحرب العالمية الأولى
وعن الأساطير التي تسيطر على أفكار الناس .

والنتيجة الهامة التي توصل اليها المؤلف هي أن أخطاء الرأي
العام ترجع في الغالب الى فساد وسائل الإعلام وما ينجم عن ذلك
من تشويه للأخبار وقلب للحقائق . وهو يرى أنه من الضروري

إعلام الرأي العام وإطلاعه على الوقائع وتفسير الحقائق له بصورة موضوعية ، دون جرح شعوره ، ومساعدته على التعبير عن نفسه تعبيراً صحيحاً ، حراً ، صادقاً ..

ترجمة المؤلف :

إن المؤلف (الفريد سوفي) ، وهو اليوم في العقد السادس من العمر ، كان قد جرح سنة ١٩١٨ في الحرب العالمية الأولى وتخرج سنة ١٩٢٢ من مدرسة الهندسة وظل حتى سنة ١٩٣٧ يعمل في دائرة الإحصاء العامة . ثم عين رئيساً لمصلحة المراقبة الاقتصادية حتى سنة ١٩٤٥ . وخلال ذلك عهدت اليه وزارة (بول رينو) في سنة ١٩٣٨ – ١٩٣٩ بالشؤون الاقتصادية . وفي سنة ١٩٤٥ عين بطلب من الجنرال (ديغول) سكرتيراً عاماً لشؤون الأسرة والسكان ، ثم أصبح في السنة نفسها مديراً « للمعهد القومي لدراسة السكان » وأسس مجلة « السكان » . كذلك عهد اليه بالتدريس في معهد الدراسات السياسية .

وبعد أن مثل فرنسا في لجنة السكان التابعة لمنظمة الأمم المتحدة أنتخب رئيساً لهذه اللجنة بين ١٩٥١ و ١٩٥٣ . كما انه سمي منذ ١٩٤٧ عضواً في المجلس الاقتصادي الأعلى ...

يتبع (سوفي) في أبحاثه الاحصائية ودراساته الاقتصادية والاجتماعية الطرائق الحديثة للمشاهدة والتجريب ، ويهتم على الأخص

بالموضوعات المتشابكة التي يشترك في بحثها أكثر من علم واحد ، وهدفه أن يعرف الانسان كما هو في القرن العشرين . والعلم في نظره لا ينفصل عن العمل ، ولذلك يريد نشر المعرفة وتوطيد العلاقات البشرية لدعم النظام الديموقراطي .

أهم آثاره :

وضع (سوفي) عدداً كبيراً من المؤلفات الاقتصادية والاجتماعية أشهرها : « الاحصائيات والتنظيم المهني » ثم « الثروة والسكان » ؛ « التنبؤ الاقتصادي » ، « النظرية العامة للسكان » ؛ « السلطة والرأي العام » ؛ « البيروقراطية » ؛ « الطبيعة الاجتماعية » ؛ « من مالتوس الى ماو - تسي - تونغ » وهذا الكتاب عن « الرأي العام » ...

المترجم

❋ ❋ ❋

الفصل الأول

ماذا يُقصد « بالرأي العام » ؟

إن تعبير « الرأي العام » يستدعي مباشرة إلى الفكر مفهوم الديمقراطية والنظام الحر ؛ بل إنه ، بالنسبة إلى بعض الناس ، مرادف للنظام الديمقراطي الغربي ، لأن فكرة الرأي العام تتعارض مع الحكم الاستبدادي أو التسلط الفردي .

قبل أن نصحح هـــذا الحكم المبسط ، لنحاول تحديد معنى التعبير بالاستناد إلى بعض الأمثلة . ولعل أبرزها هو ذلك المثـال التاريخي عن يقظة الرأي العام في انكلترا سنة ١٩٣٥ تجاه المشروع « الواقعي » المعروف باسم (لافال – هور) الذي كان قد سبق وتضمن مايشبه اتفاق (مونيخ) لمصلحة ايطاليـــا الفاشيستية في (اثيوبيا) . فقد ارتفعت أصوات عديدة من مختلف البيئات ضد

هذه التضحية واضطرت الحكومة إلى التخلي عن المشروع .

وفي مناسبات أخرى نرى الرأي العام كثيراً ما يصدر حكمه في دعوى جنائية لفرض التبرئة أو العفو .

وقد يحدث اضراب فلا يكترث به الرأي العام أو يؤيده أو يعارضه . ان الحكومات والنقابات (وأحياناً المؤسسات الاقتصادية أيضاً) تخشى هذا الرأي العام وتحسب له ألف حساب .

هكذا فالرأي العام عبارة عن حكم وضمير حساس . بل يمكننا القول أنه محكمة ، لا شك في أنها مجردة عن السلطة القضائية ولكنها مرهوبة الجانب . إنه صوت الأمة الباطني .

فالرأي العام ذلك القادر المجهول الاسم كثيراً ما يصبح قوة سياسية وإن لم يرد ذكرها في الدستور .

لا بد للرأي العام من نقطة ارتكاز :

كيف تتكون هذه القوة السحرية وما هي مصادرها ؟ إننا لا نتحدث عن وجود « رأي عام » عندما تسود وحدة تامة في الأفكار . فليس هناك من فائدة في أن نؤكد بأن الرأي العام معارض للزلزال أو الزواج بين الأقارب أو شلل الأطفال ، مثلما فعل قسيس (كوليدج) عندما استشير في موضوع الخطيئة فصرح بأنه (معارض) لها .

لأجل أن تبرز القوة لا بد لها من أن تصادف نقطة ارتكاز

أي أن تصطدم بمقاومة وبشيء من المعارضة .

لا شك أن هناك في كل مجتمع « محرمات » لا يجوز انتهاكها أي عقائد راسخة لا يمكن أن نطلق عليها تعبير « الرأي العام » إلا إذا حكمنا عليها من الخارج ، أي من وجهة نظر بيئة لا تتمتع فيها هذه المحرمات بالمكانة ذاتها . هكذا كان الأمر مثلاً بالنسبة إلى « حركة المقاومة » في سنة ١٩٤٥ . وكذلك احترام الملك في انكلترا أو احترام (جان دارك) في فرنسا لا يمكن اعتبارهما من مظاهر الرأي العام إلا بالنسبة إلى أشخاص خارجيين لا يشاركون بالذات هذه النظرة .

لأجل أن نتكلم على وجود « رأي عام » حقاً لا بد من أن تكون هناك مقاومة فعالة أو على الأقل ممكنة .

وكثيراً ما تكون هذه المقاومة أو المعارضة ناشئة عن حالة الحكومة أو البارلمان أو السلطات . ويكون من الضروري على الأقل التغلب على جمودها وإثارة نشاطها تلبية لرغبة الكثير من الأوساط . وقد يبرز تيـــار من الرأي العام ضد دولة أجنبية حصلت مشاكل معها ولكن لم تردالحكومة مقاطعتها بعنف .

ويحدث احياناً ايضاً ان ينعزل « الفنيون » وارباب الاختصاص في فرع معين عن بقية المجتمع ، عن الجمهور في مسائل يكاد ان

كون الاتفاق تاماً حولها من الوجهة العلمية دون أن تكون
ذه المعطيات قد ذاعت ذيوعاً كافياً .

فالمتخصصون في الحمية والتغذية أو حساب الاحتمالات ، ولا
كلم عن الأطباء ، يتحدثون حينئذ فيما بينهم أو عند مخاطبتهم
مهور « عن اخطاء الرأي العام » . ان الأمر هنا لا يتعلق بالفن
و الجهل فحسب لأن التعارض قد ينشأ أحياناً بين الملاحظ العاقل
جرد عن الهوى ومجموع النـــاس الذين يصعب عليهم اصدار حكم
لمي ، بل يتعذر عليهم أن يبصروا لكثرة اندفاعهم التلقائي . وليس
لقصود في هذه الحالة انتقاد الرأي العام بالمعنى الدقيق ، بـــل
لقصود التشهير بالأحكام العامة السابقة وبنقائص المعرفة في مسائل
ات صبغة علمية ولكن لها علاقة بالحياة اليومية لكل فرد .

على ان هذه النقائص أو الأحكام السابقـــة تكتسب أهمية
كبيرة لما يترتب عليها من تأثير في مواقف كثيرة . وسنعود الى
ذه الناحية فيما بعد .

ليس الرأي العام اقتراعاً شعبياً :

عندما يدور البحث في مسائل أقرب الى السياسة منهـا الى
لعلم ، وهي حقاً لب موضوعنا ، فـــان الرأي العام لا يتألف
الضرورة من خلاصة الآراء الفردية في موضوع معين ، حتى ولا
ن أكثرية هذه الآراء . ان مثل هـذا الرأي لا يمكن الحصول

عليه إلا باجراء استفتاء محدد ، كما يجري في (سويسرة) أو في « عمليات سبر الرأي العام » [راجع الفصل الرابع]

نستطيع أن نميز أربعة أشكال للرأي العام :

أ - الرأي الذي يعبر عنه بوضوح ويعلن عنه بالأبواق .

ب - الرأي المتناقل شفهياً الذي يهمس به احياناً كما في الشائعات .

حـ الاقتراع العام أو الاستفتاء .

د - الاستفتاء مع التصويت الالزامي .

والرأي العام ، حسبما يفهم في الغالب ، ينطبق على التعريفين الواردين في أ و ب . وبهذا المعنى فهو يختلف إذن اختلافاً كبيراً عن الاقتراع الشعبي .

هناك فئات وجماعات (مثل الفئات المهنية ، غرف التجارة ، النقابات ، الجمعيات والمنظمات المختلفة الخ ..) يمثلها أشخاص يتمتعون بوسائل للتعبير على مقياس واسع . ثم هناك احياناً جماعات محدودة ، بل هناك مجرد أفراد يملكون أبواقاً قوية تنطق باسمهم كالصحف خاصة وكمحطات الاذاعة في بعض البلدان . من مجموع هذه الأصوات يتألف الرأي العام عندما يكون هناك التحام نسبي . ولنوضح ذلك :

الالتحام الضروري :

اذا كانت مجموعة الآراء المعلنة غير متجانسة وكانت منقسمة بصراحة الى ثلاث او أربع فئات كان من الصعب الكلام على رأي عام . لاشك في أننا كثيراً مانسمع القول بأن « الرأي العام منقسم على نفسه » في هذا الموضوع أو ذاك . وهذا التعبير يصح قبل كل شيء عندما يكون الانقسام غير خاضع للقواعد التقليدية . وعلى العكس اذا جرى الانقسام صراحة تبعاً للتبلور الاجتماعي ـ السياسي فلا يعود من الممكن الكلام على رأي عام حقاً . إنه من الخطل أن نتحدث مثلا عن رأي عام في موضوع التعليم (العلماني) أو الديني . ولكن بصرف النظر عن الحالات النادرة التي تسود فيها وحدة الرأي فقد يحدث أن تخف المعارضة التقليدية في موضوع معين . فترى أحد المعسكرين الذي يشعر بملاءمة الرياح له يزيد في قوة صوته بينما يضعف صوت المعسكر الآخر . عندئـذ يمكن التحدث عن تيار الرأي العام . هكذا قامت احزاب اليمين بين ١٩٤٥ - ١٩٤٩ تعاكس بعنف التدخل الاجتماعي (الحكومي) ، وعلى الأخص التوزيع العادل للمواد الغذائية النادرة ، دون أن تستطيع أحزاب اليسار ابـداء معارضة كافية لأن رؤساء هذه الأحزاب كانوا يشعرون في الواقع بأن التقنين لم يكن مرغوباً فيه لدى الشعب ، لذلك لم يكونوا ليستطيعوا الدفاع عنه صراحـة . وهكذا تجـلى الرأي العام فتغلب على الحواجز وأدى الى تضخم

نقدي خاص بفرنسا لم يسبق له مثيل .

كذلك لم تعــد أحزاب اليمين السياسية تجسر على الدعوة بحماسة كافية الى قواعد الحكمة المالية الكلاسيكية لشعورها بأن قسماً كبيراً من اتباعها سوف يتخلى عنها على هذا الصعيد .

ومما يدل دوماً على مغزى كبير موقف الفنيين أنفسهم ، سواء كانوا اقتصاديين أو ماليين أو عسكريين والخ ، أو موقف الحياديين . فان كل تعديل في آرائهم أو في ردودهم التقليدية ينم على شيء من الخوف من معاكسة التيار الشعبي . ان القلائل جداً من الاقتصاديين تجرأووا على تحمل مسؤولياتهم أثناء البحث في تحديد أسبوع العمـــل بأربعين ساعة . وفي فترة مابين الحربين لم يجد العسكريون الفرنسيون بداً من الاذعان لفكرة السلام والاكتفاء بالاستعداد لحرب دفاعية مخالفة على السواء لقواعد الفن العسكري المدرسية ولمعاهدات التحالف المعقودة وبالتالي للمشاكل القائمة .

وهكذا فانه بتأثير تفاعل العوامــل المخففة والمشددة ونتيجة لمواقف المنظمات والأشخاص المحايدين للموضوع المطلوب أو القليلي النشاط فيه يبرز تيار من الرأي العام يصرح بأنه يؤيد هذا الاتجاه أو ذاك .

محاورات ، رسائل ، مظاهرات عفوية :

ان الجماعات والأفراد ، مهما يكن بعضها قوياً ، يلاقون

صعوبات كبيرة عند خلقهم من لا شيء رأياً عاماً مصطنعاً ، (راجع الفصل الحادي عشر عن التأثير في الرأي العام) ولا بد لهم من أن يستندوا قليلاً أو كثيراً إلى آراء وعواطف ومواقف فردية . وهم يحصلون على المعلومات في هذا الموضوع بطريق المحاورات والرسائل والاتصالات الهاتفية الخ ، وبمختلف التظاهرات العفوية لدى الأفراد أو الجماعات المحدودة الأعداد . فكل هيئة مركزية نقابية أو مهنية تهتم « بالقاعدة » (أي بآراء مجموع الأفراد الذين يؤلفون الأساس) ، وكل جريدة تسعى الى معرفة آراء قرائها ، وكل برلماني يرغب في « جس نبض » دائرته الانتخابية . ثم إن حوادث صغيرة ، عفوية أيضاً ، قد تنير السبيل أمام اولئك الذين يريدون معرفة الرأي العام على وجه أعمق . هكذا في سنة ١٩٤٤ ، عندما اقتربت ساعة « التحرير » في فرنسا أخذ الألمان يصطدمون بحركات عصيان صغيرة لم تأمر بها « حركة المقاومة » ولكنها كانت تدل على الحالة الروحية في ذلك الوقت . كذلك الصور المرسومة على الجدران فانها لم تكن تخلو من مغزى .

الرأي العام الدائم وتيارات الرأي العام :

من السهل التمييز بين وجهتين : ١) الأوضاع الدائمة ؛ ٢) تيارات الرأي العام .

أما الأولى فهي المواقف التقليدية مثل المعارضة لنظام الضرائب

أو لدواوين الحكومة . إنه ليس هناك جمعية باسم « أصدقاء الخزانة » أو جماعة « للدفاع عن البيروقراطية » . ويكفي أن نستمع ليلة الى منشدي الأغاني في الملاهي حتى نعرف الموضوعات التي تحظى بالرضى .

إن هذه الآراء الدائمة أو الثابتة لا تسترعي دوماً اهتماماً كبيراً حتى عند ما تكون غير مكتسبة قالب العقائد والمقدسات . وهي معروفة أحياناً معرفة جيدة بحيث لا يكون هناك أي فائدة من البحث في اتجاهاتها . إنها مسلمات النظام التي ينبغي معرفتها مرة واحدة كما هي الحال مع (خارطة) فرنسا . على أن فهم حضارة من الحضارات يقتضي أحياناً معرفة واسعة جداً للعقائد الثابتة أو للأساطير التي تنشأ وتبعث دون انقطاع . وسنذكر مثالين على ذلك في الفصلين الخامس والسادس .

وأما تيارات الرأي العام فيمكن أن نستخلص منها فوائد كثيرة . وعلى الرغم من خطر اتهامنا بالتفاهة نقول إن جميع الأشخاص العاملين في الحياة العامة يجب أن « يعرفوا السباحة » . إنه من المهم بالنسبة اليهم توجيه انتباههم بأسرع ما يمكن الى كل تيار للرأي العام ، وذلك إن لم يكن للسير معه بصورة عمياء ، فعلى الأقل ليكونوا على حذر منه أو ليتجهزوا ضده . وكل من يريد قيادة الناس وتوجيههم دون أن يحسب لآرائهم حساباً لا بد من أن ينتهي الى

الاعتراف بخطئه حتى لو كان واثقاً من صحة رأيه . وستسنح لنا فرصة الرجوع الى هذا الموضوع فيما بعد .

تتكون تيارات الرأي العام في الأغلب إثر حوادث طارئة ليست هي نفسها ذات خطورة أحياناً . كذلك يمكن أن يكون الأمر عبارة عن نضج خفي للأفكار قد يؤدي فجأة الى تظاهرة عنيفة .

ان الالتحام ، الذي أشرنا الى ضرورته ، ليس من الواجب ان يكون مطلقاً حتى نستطيع الكلام عن تيار الرأي العام . ففي سنة ١٩٥٣ - ١٩٥٤ على الرغم من فقدان الاجماع ، أمكن التحدث عن تيار للرأي العام ضد « الرابطة الاوروبية للدفاع » لأن اصواتاً مختلفة (وحيادية نسبياً) مثل (كونت دو باري) و (فنسان أوريول) و (ديغول) و (هريو) وغيرهم قد ارتفعت متتابعة للتشهير باخطـار المشروع . وعلى العكس لم يكن من الممكن التحدث عن تيـار حقيقي للرأي العام ضد حرب الهند الصينية (رغم أن الأكثرية العظمى من الفرنسيين كانت ترغب رغبة شديدة في إنهاء القتال) لأن مواقف أصحاب الرأي كانت تغلب عليها الصبغة السياسية . فلكي يمكن استعمال كلمـة (رأي) في صيغة المفرد كان ينبغي للأصوات المخالفة في صفوف أحزاب اليمين المحافظة أن ترتفع بسلطة كافية . ولكن الموقف الصريح الذي

اتخذه الشيوعيون كان حقاً عائقاً عن ظهور مثل هذه المخالفة .

الرأي والموقف :

ان اصطلاح (الرأي) الذي لا يقتصر مفهومه على مجرد المعرفة ، يتضمن دوماً شيئاً من إبداء وجهة النظر فيما يجدر عمله على الأخص في الشؤون العامة . بهذا المعنى يكون مفهوم الرأي قريباً جداً من مفهوم الموقف الذي يدعو الى اتخاذه ، إلا ان الافراد يميلون ، عن اخلاص ، الى اتخاذ موقف معين أولاً ثم بعد ذلك الى تكوين رأي يتناسب مع هذا الموقف . (انظر الفصل التالي) .

الديموقراطيات الغربية والحكومات الاستبدادية :

كثيراً ما يقولون في بلاد الديموقراطيات الغربية ان وجود رأي عام حر يعتبر في حد ذاته دليلاً على الديموقراطية على أن هذا القول الشائع لا يصمد للفحص الدقيق . فإن الرأي العام في البلاد الخاضعة لنظام الاقتراع القائم على المساواة والسرية لا بد من أن يعرقل هذا النظام ويفسده ثم قد يضفي عليه صبغة معادية للديموقراطية .

لا شك في أنه يمكن الاعتراض بان الاقتراع العام لا يتضمن سوى تفويض عام دون التعرض الى مختلف المسائل الجزئية . وقد تظهر بين انتخاب وآخر مشاكل جديدة ، فيحتار البرلمانيون في معرفة رغبات ناخبيهم بحيث يصبح من المفيد إجراء استشارة جزئية

في البلاد لمعرفة اتجاهات الرأي العام الجديدة . وهذه الاستشارة ، المجردة عن كل سلطة شرعية ، لا تزودنا باكثر من بعض الإشارات . إلا أن هذه الاشارات المنبثقة عن أصوات الاقلية والقائمة على ما يشبه الاقتراع الجمعي تتنافى مع مبدأ الاقتراع العام نفسه وذلك بمقدار ما تلعب الوسائل المالية فيها دوراً كبيراً . وقد يكون من الاجدر في هذه الحالة إجراء استفتاء عام يستند الى قواعد الانتخابات ذاتها ليعرف البرلمانيون الوضع على الوجه الصحيح . وليس من الضروري أن يكون لهذا الاستفتاء ، كما في سويسرة ، (مؤيد) قانوني .

وفي الواقع ليس الاستفتاء متبعاً إلا في قليل من البلدان . إنه يزعج المتصدرين على كراسي الحكم كثيراً ، وينذر بإثارة المشاكل ويؤدي الى خيبة الآمال . حتى أن أكثر الأنصار تمسكا بمبدأ الاقتراع العام يعترفون بأنه لايمكن استشارة الشعب صاحب السيادة الا من حين الى آخر وبكثير من الحذر . .

قد يتكون ، كما رأينا ، تيار للرأي العام من خلال الانقسامات السياسية وغيرها بتأثير التفاعل المرن بين العوامل المخففة والمشددة . الا إن انقسام القوى التي تؤلف الرأي العام ليس كافياً أبداً لضمان التوازن الملائم الذي ينبيء به قانون الاعداد الكبيرة . ان بعض الأشخاص أو الجماعات لهم من السطوة مايمكنهم على الاقل من التأثير في الرأي العام نفسه ان لم يستطيعوا فرض وجهات نظرهم عليه .

فكل مواطن اميريكي بل كل أجنبي له الحق في أن يؤسس في صباح الغد جريدة لمنافسة صحيفة (نيويورك تايمس) أو (شيكاغو تريبون) . ولكن هـذه المساواة في الحقوق تدعو الى شيء من السخرية !

ومن جهة أخرى هناك في البلاد الديموقراطية ، كما رأينـا ، « محرمات » مختلفة تمنع الرأي العام من التعبير عن نفسه بحرية . فانه من الممكن أحياناً في الولايات المتحدة دفع الرأي العام الى رفض مشروع جديد ، مهما كان مفيداً ، بمجرد اتهامه انه « غير اميريكي » . وفي كل بلد عراقيل من هذا النوع .

الرأى العام في النظام الاستبدادى :

ليس صحيحاً القول إن الحكومة الاستبدادية لاتحتاج أبداً الى الاهتمام بالرأي العام . إنما ينبغي التمييز بين الحكم الدكتاتوري الذي يتولاه فرد أو عصبة من الأفرادودكتاتورية الحزب (البروليتاري) . هناك رأيان عامان في حكم التسلط أو في الديموقراطيات الغربية : أحدهما علني صريح ، والآخر عميق ولكنه أكثر تنوعـاً وتميزاً إذ إنـه خفي تقريبـاً لا يكاد يحس به . والرأي العـام الصريح يتضمن إشارات مفيدة رغم أنه لا ينبثق إلا عن فئة محدودة من المواطنين إنه ليس في استطاعـة الدكتاتور مهما تكن سطوته أن يملي بنفسه مقالات الصحف كلها . وإذن لا بدّ من ظهور بعض الاختلافات .

ان هذا الرأي العام أبعد في الحقيقة عن الاقتراع العام من نظيره في الديموقراطيات الغربيـة ولكن الأمر ليس سوى اختـلاف في الدرجة . فأكثرية الاصوات في الحكم الدكتاتوري أقوى ، كما إن المجال لتطور الرأي العام أقل اتساعاً . ومن ناحية أخرى يوجد ، على وجه العموم ، في مثل هذه الانظمة للحكم رقابة بريدية سرية الى حد ما تعرف الحكومات بها حالة الرأي العام وذلك أحياناً على وجه أتم مما تكشف عنه تقارير الموظفين . هكذا لاحظت حكومة (فيشي) في ايلول سنة ١٩٤٠ ، بقراءة الرسائل تطوراً في الرأي العام يدل على تحول حقيقي . فإن الفرنسيين الذين كانوا حتى ذلك الوقت يعربون عن الرضى أو الاستسلام أخذوا يبدون معارضة حقيقية نتيجة للمقاومة المظفرة التي قام بها الطيران الانكليزي ونتيجة في الوقت نفسه لفرض التقنين على المواد الغذائية .

كذلك يمكن أن يتجلى الرأي العام في جماعة دينية حول جميع المسائل التي لا تتصل بالعقيدة .

وفي الديموقراطيات الشعبية يوجد رأي عام علني ، صريح يقتصر في الوقت الحاضر على ميدان ضيق لا يتعداه . أما الرأي العام العميق ، الخفي الذي يتأثر كثيراً بالأخبار والدعاوة ، فإنه لا يعرف إلا قليلا ، وهذا مما يفسح المجال لأن تبنى عليه مختلف الفرضيات .

يعتبر انتهاك المحرمات أو مخالفة العقائد في أمة خاضعة لحكم

استبدادي أو جماعي بطبيعة الحال أكثر خطورة مما لو حدث ذلك في بلد ديموقراطي – غربي ؛ إن الأمر يدل حينئذ على بداية حركة كفر وعصيان قد يكتب لها النجاح أو يقضي عليها . إلا إننا نرتكب شططاً إذا أردنا التفريق بصورة مطلقة بين الديموقراطيات الغربية والشرقية . فإن الأولى لا تبلغ من الحرية الدرجة التي تدعيها . وقد تصطبغ الثانية بقليل أو كثير من الحرية كما أثبتت ذلك الأمثلة الأخيرة (بعد عهد ستالين) . وأخيراً يمكن تصور حالات وسطى بحيث يتعذر أن نتحدث عن انقطاع تام بين هذين النوعين من الديموقراطية .

الرأى العام الجزئي والقومي والعالمي :

ان تعبير « الرأي العام » أو مجرد « الرأي » كثيراً ما يفهم بالمعنى القومي . وعندما تكون الآراء منقسمة يمكن التحدث عن آراء جزئية لحزب أو طبقة أو منطقة والخ ، مع ضرورة تخصيص الجماعة التي يتعلق بها الأمر .

كذلك يوجد في بعض الظروف رأي عام عالمي . وهو ، مثل الرأي القومي ، يجب أن يتصف بشيء من الالتحام وأن تكون له نقطة استناد . وعلى هذا الأساس لوحظ منذ الحرب تياران للرأي العام متمايزان رغم القرابة بينهما : تيار مضاد للعنصرية وهو رد فعل تجاه التعاليم الهتلرية أو تجاه أعمال التمييز التي ما زالت

سائدة في بعض البلدان ، ثم تيار معاد للاستعمار الذي ترتفع أصوات الشكوى منه بصورة أقوى .

التعريف بحسب الاستعمال :

هذه اللمحة السريعة لا تنتهي الى تعريف حقيقي للرأي العام ، وهي لم تكن لتدعي ذلك . وعوضاً عن محاولة حصر المفهوم ضمن حدود ضيقة من الأفضل وصف مظاهره المختلفة ثم السعي في آخر الكتاب الى تقديم خلاصة له .

وقبل الانتقال الى أبرز الأمثلة لا بد لنا من استعراض العمليات الجوهرية لتكوين ما يسمى عادة بالرأي العام .



الفصل الثاني

العواطف والعقل

إن آراء الأفراد ومواقفهم ليست ، كما هو معلوم ، مرادفة للرأي العام أو لموقف هؤلاء الأفراد مجتمعين . وقد أجريت أبحاث عديدة على المنطق الجماعي منذ ظهور كتاب (روح الجماهير ، لجوستاف لوبون) الذي يجمع بين العبقرية والبساطة والذي كثيراً ما يظلمه الناقدون اليوم مسترسلين في تعداد أخطائه الظاهرة بينما كان ينبغي لهم أن يقتصروا لديه ، اقتصارهم بالنسبة الى كل مجدد ، على إبراز الجوهر الصالح .

عند ما يجلس ستة أشخاص حول مائدة في مقهى فإنهم لا يطلبون المشروبات التي يطلبونها حينما يكونون منعزلين بعضهم عن بعض . ان مجرد اجتماعهم ودعوتهم الى التعبير عن رغباتهم بصورة علنية يؤدي الى تغيير آرائهم .

ولإدراك الفرق بين الكل والأجزاء المؤلفة له ليس من الضروري أن يجتمع الافراد في غرفة أو في ملعب مثلا ، وإن كان هذا الاجتماع يزيد كثيراً في قوة الظاهرة . والأفراد الذين يشعرون أو يعرفون أنهم مشتركون في الأفكار مثل أبناء الديانة الواحدة أو الطبقة الاجتماعية الواحدة ... والخ ، يمكن أن تنسجم أصواتهم دون حاجة إلى اتصال جمعي .

الرأى العام العاطفي :

إننا نلمس هنا أحد الأسباب التي قد تجعل الرأي العام الصريح ، المعلن عنه يختلف عن الرأي العام العميق ، الخفي الذي لا ينكشف إلا بطرق استقصائية خاصة . فالرأي العام الأول أسهل خضوعاً للمنطق الجماعي ، لا سيا إذا كان عفوياً ، طبيعياً . ولنرجع الى المثال الذي سبق الاستشهاد به عن رد فعل الرأي العام الانكليزي تجاه مشروع (لاوال – هور) عن الحبشة سنة ١٩٣٥ . فهل كان هذا المشروع حكيماً ؟ وهل كان من المحتمل أن يحول دون الحرب العالمية . لا يهمنا أن نعرف الجواب عن هذين السؤالين . ولكن من المؤكد أن هذا المشروع الحكومي كان واقعياً أكثر مما يحتمل الرأي العام الذي أظهر لذلك ما يشبه الثورة .

ولو أن (تشمبرلين) أو أي شخص غيره أقدم في سنة ١٩٣٩ على تأييد التحالف الانكليزي – الفرنسي - الروسي ورضي في سبيل

ذلك بتضحية الجمهوريات البلطيكية على مذبح العقل ، كما طالب الحكام الواقعيون في الاتحاد السوفياتي ،لأدى الأمر بلا ريب إلى النتيجة نفسها .

الرأي العام الواقعي :

إن الرأي العام ، رغم انقياده المتطرف أحياناً للمشاعر الانفعالية لا يغفل عن الوقائع أو عن بعضها على الأقل . فلو أن استفتاء أجري في تموز سنة ١٩٤٠ ، حتى لو تم في السر دون ضغط حكومي ، لمنح المارشال (بيتان) الأكثرية ولما كانت حركة المقاومة إذ ذاك لتجد لنفسها أنصاراً .

في فيلم (نوئل – نوئل) من أفلام ما بعد الحرب نرى شخصين يتناقشان حول عدد سكان قريتهما . فيقول الأول : إنهم (٦٠٠) ويرد الثاني : بل هم ٣٠٠ . ثم يسرع الأول قائلاً : عفواً ، ألم نسجل في سنة (١٩٤٠) أسماء (٣٠٠) من أنصار (بيتان) ؟ فاعترف الآخر : « إن هذا صحيح . » ويستمر الأول متسائلاً : وفي سنة ١٩٤٤ ألم يظهر من الاحصاء أن هناك (٣٠٠) يتبعون (ديغول) ؟ فيجيب الثاني : « ذلك هو ما حدث . » وهنا يصيح الأول : – « لما كان هؤلاء ليسوا اولئك بالتأكيد .. فمن الواضح أن المجموع هو (٦٠٠) . »

وقد أشرنا في الفصل الأول ، كما سنعود في الفصل التاسع ،

الى الاسباب الفعلية في انقلاب الرأي العام سنة ١٩٤٠ .

من المعروف أن الشعوب تنكر الجميل . (ويقول « بلوتارك » أن ذلك من شيمة الشعوب القوية .) والرجال العظام يستسلمون دوماً الى الوهم بان الخدمات التي سبق لهم تأديتها الى بلادهم سوف تنال التقدير في حين أن الشعوب تحكم على الرجال حسب الخدمات التي تنتظرها منهم في الحاضر والمستقبل . تلك كانت التجربة الأليمة التي مرّ بها (كلمنصو) في سنة ١٩١٩ ثم (تشرشل) و (ديغول) في سنة (١٩٤٥ — ١٩٤٦) .

الدعامة الواقعية والمحرك العاطفي :

ان قادة الرأي العام يسعون قبل كل شيء الى التأثير في الأوتار العاطفية ، وإن كانوا لا يهملون الحجج المنطقية التي تؤيد قضيتهم . والدعائم العقلية إنما تتوطد في أعماق ما تحت الشعور . ذلك لأن العقل وحده لا يضمن ، على وجه العموم ، الوحدة الضرورية بين وجهات النظر . فإن دائرة الأفكار التي يسمح العقل بالتنقل فيها تبقى واسعة الى درجة تضعف كثيراً من نفوذ الجماعة وإمكانياتها في العمل . ويمكن تشبيه ذلك بحالة السنان الذي تتناسب قدرته على الاختراق والنفوذ تناسباً معكوساً مع حجمه .

وعلى ذلك تظل العاطفة المحرك الأساسي . حتى أن ملاحظة الوقائع نفسها تتأثر الى حد كبير بالدافع العاطفي . وهذه النقطة تستحق الاهتمام .

النتيجة اولاً :

ينطلق الفكر في مجراه الطبيعي من الواقع والتجربة ثم يتجه الى العمل أو القرار الواجب اتخاذه بعد أن يجتاز مرحلة المحاكمة المنطقية . « إن الكينا تؤدي الى هبوط درجة الحمى . وأنا أشعر بأعراض الحمى . ولما كنت مخلوقاً مثل الآخرين فإنني سأتناول الكينا . » ولكن الواقع هو أن الرأي يتبع في الأغلب الطريق المعكوسة . لنلاحظ بجموع الأشخاص في كتلة تؤلف ، على الأقل ، جزءاً من الرأي العام إن لم تكن تمثله كله . فهذا الشخص له مصالح ظاهرة (مثل مصلحته في ازدياد دخله) وهو يشعر بعواطف مؤيدة لهذه المصالح (مثل الرغبة في الأحسن ، الاستياء من الدخل القليل جداً ، الحقد على الآخرين ، العصيان ضد الحكم السائد) . وفي سبيل تلبية هذه العواطف ، وبالتالي في سبيل تنمية روح المطالبة التي قد تفيد في تحقيق المصالح — في سبيل كل ذلك يريد الفكر أن يبرهن على أن الوقائع نفسها مطابقة للهدف المقصود أو يرغب في أن يعتقد بأنها كذلك . وهكذا عوضاً عن الابتداء من الوقائع للوصول الى النتيجة الايجابية فإن الفكر ينطلق من هذه النتيجة ثم يعود الى الوقائع . ولا يحتاج بعد ذلك إلا الى البرهان على أن الوقائع هي حقاً كما يريد . وهذا ممكن القيام به دوماً بطريق الاصطفاء المناسب للحوادث . فإن الذي يريد المعالجة من التشنج يستطيع

تأكيد بأن لديه أعراض (الزحار الكبدي) وقد يتخيل أنه مريض ذلك فعلاً . والفلاح الذي يتمنى ارتفاع الاسعار أو بطلب مساعدة ن السلطات العامة يعلن بأن المحصول رديء ثم ينتهي بسهولة الى لاعتقاد بذلك .

إن الرأي العام في مجموعه (وبالأحرى الرأي الحزبي) بعيد بداً عن الملاحظة العقلية . على أن النظرة الذاتية لا تضعف شيئاً ن قوة المنطق بل على العكس فإن من يقصد الوصول الى النتيجة تي يبحث عنها يتبع (في البرهان) منطقاً دقيقاً (خوفاً من أن كتشف القارىء أو السامع الخطأ في المحاكمة) بينما ينقل الانحراف كله الى الوقائع الأساسية التي لا يمكن اخضاعها ، بدورها ، الى ثل هذه الرقابة .

النكت ، الأغاني :

عند ما نتحدث عن العاطفة فان البحث لا يدور فقط حول لحقد والبغض والخوف والكرم والرغبة في العدالة ، بل لعل من برز الظواهر هنا الموقف الذي نتخذه تجاه الدعابة . متى تبلور لرأي العام حول موضوع ما فإن كل تهكم وكل نكتة في هذا صدد ينظر إليها بالنسبة إلى الجوهر أكثر من الناحية الشكلية . المؤمن لا يستسيغ ملح دعابة مضادة للكنيسة ، مهما كان هذا لملح لطيفاً . وعلى العكس من السهل جداً إثارة الضحكات

العريضـــة ضمن قاعة تتفق آراء الحضور فيها حول موضوع ما . وجميع الخطباء يعرفون هـذه الامكانات ويستثمرونهـا . ففي عهد التقنين كان المؤكد نجاح الخطيب الذي يقول لسامعيه أنه في سبيل إعاشة نفسه لم ينتظر صدور آخر المراسيم عن التموين . لقد كان من اليسير الحصول على هذا الارتياح الجماعي لأن التوتر كان مشتركاً .

والروح النكتة قوة الهاء كبيرة عند ما تكون النفوس متوترة في اجتماع الى درجة تنذر بالشر ، فان كلمة في موضعهـا ووقتها المناسب تبدر من شخص في سبيل تبديل الموضوع من شأنها أن تحدث نوعاً من الانفراج غير منتظر . هنا أيضـاً يعرف الخطيب الموهوب كيف يجد الفكرة المناسبة دون أن يكون قد تعلم أبداً هذا الفن الذي لا يمكن تدريسه .

أما الأغاني فإنهـا تظهر وتصطفى بصورة أسهل من الأخبـار فتعبر بصدق عن عواطف الرأي العام ولكنها لا تعبّر عن عقله ابداً .

الصدق والاخلاص :

من المعتاد في كل نزاع اتهام الخصوم بسوء النية . وهذا التعبير وإن كان واضحاً في الظاهر فهو لا يخلو من الابهام لأنه يوحي ، الى حد ما ، بأن الخصم ينقصه الصدق والاخلاص .

على أن الرأي كلما كان مشحوناً بالعاطفة والحماسـة كان أكثر صدقاً وإخلاصاً . فاذا رأينـا شخصاً يرفض أن يبحث في الأمور

بحياد تام ودون تحزب فذلك لأن قوى عقلية مازالت قائمة في نفسه مكبوتة في الأعماق تحت الشعور ولكنها على استعداد للعودة الى السطح . إن الوجدان الذي يضطر الى الكفاح تجاه الظاهر والباطن معاً لا تبقى له من وسيلة للتخلص من الحرج سوى أن يرفض المعركة . وكم من المهارة واللباقة الفائقة (التي لا يلاحظها الشعور الفردي أو الجماعي) يحتاج اليها الشخص أو الجماعة في سبيل تحاشي الموضوعات العويصة . ومع ذلك فان الفرد ليس مسلحاً بقدر الجماعة لاقتحام هذه المعركة . فهو مضطر الى التساهل والى الاعتراف بالوقائع الجلية عند ما يخوض في الحديث مع شخص « عاقل » يعرف كيف يتحاشى كل ما يسبب التوتر السريع . ولكن هذا التراجع قد ينقلب فجاءة الى عكسه . أن الفرد لا يكاد يعود الى بيئته ويجد نفسه محاطاً بالمؤمنين ويسمع التعابير العاطفية البعيدة عن العقل حتى يتشبث بمواقفه السابقة . وكثيراً ما يجبهنا في البارلمان أو في اجتماع بين الخصوم هذا المشهد : تبدأ مناقشة هادئة ، مؤيدة بالبراهين والوثائق بين « خبيرين » ينتميان الى جماعتين متعارضتين ، فيبدو أن الرغبة في المعرفة ، بل في التفاهم هي المسيطرة عليها . وبالتدريج تنكشف معالم الحقيقة ، ويشعر المناضلون الحزبيون من الطرفين بخيبة أمل يخشون معها تشتيت شمل التابعين . عندئذ يتدخل أحد المناضلين وينطق بالعبارات العاطفية — الحماسية الملائمة ، وأحياناً يلفظ

مجرد شعار تقليدي أو يغني نشيداً . وفي الحال يحدث الانقسام وتعود في الوقت نفسه كل واحدة من الجماعتين الى تكتلها وتتمسك بآرائها .

الرأي العام ازاء العقل :

ان الرأي العام ينقاد الى قوانين مماثلة . فهو ، دون شك ، لا يصطدم بخصم متحمس حقاً بل بأقلية عاقلة تسعى بكثير من العناية وبطريقة منظمة الى ابراز الوقائع التي لا يعرفها الناس معرفة جيدة والتي تدخل ، على الأغلب ، في زمرة الحقائق المؤلمة . ان هذا السعي لا يثمر كثيراً في الظروف العادية أو لا يؤثر الا بصورة بطيئة : اذ لا بد من مرحلة طويلة للاعلام الصحيح تعقبها تأملات فردية حتى يمكن ، ضمن هذه الشروط ، تحويل الرأي العام . وعلى العكس من ذلك يستطيع حادث فجائي ، مثير ، أن يسبب تحولاً أشد سرعة . انّ الانهيار العسكري في سنة ١٩٤٠ قد أوحى الى الكثيرين أن يرددوا في داخلهم بأنهم كانوا دوماً يصرحون بأن ذلك سوف يحدث . ومجموع هذه الاصوات الباطنية قد جعل الرأي العام الذي لم يكن في الواقع يميل كثيراً الى الحرب ولكنه كان مطمئناً ، واثقاً ، ينقلب إلى رأي عام مستسلم ، راض عن الوضع الجديد . ان تياراً فعالاً للرأي العام يمكن أن يتضخم بسرعة وينال أكثرية قوية تفرض نفسها . هكذا كانت

لحالة بالضبط في استفتاء سكان منطقة (السار) سنة ١٩٣٥ ثم في سنة ١٩٥٥ .

النظرة العقلية لا تتمتع بالشعبية :

ان الشخص المفكر الذي يتمسك بالعقل ويحطم الأساطير ينظر اليه دوماً شزراً سواء كان الأمر يتعلق بالعلوم الغيبية (راجع الفصل الثالث) أو بأوهام النظرة الاجتماعية أو بأي أسطورة أخرى. إن الرأي سواء العام أو الفردي يقابل هـذا الشخص بنوعين من ردود الفعل الدفاعية :

١ – عندما تكون العقيدة حية وقوية يمثل الشخص المتمسك بالعقل ، حسب الظروف ، في صورة مجنون أو مارق عن الدين أو خائن أو على الأقل في صورة إنسان تعيس ، متأخر لم تشرق عليه أنوار الوحي .

٢ – عندما يكون هناك بعض الشك قد اخذ يتسرب إلى النفوس في الخفاء فان المفكر الربي يبدو محطماً للأحلام ويتعرض الى الأخطار التي تصيب ناقل الأخبار السيئة بما في ذلك وسائل العنف.

التسامح والعقل :

هل يستنتج من ذلك أن الرأي العام عبارة عن « مجنونة البيت » البعيدة عن العقل ، المندفعة مع الهوى التي تحوم الشكوك دوماً حولها ويعارضها المفكرون ، الهادئون ، الحكماء ؟ وهل أن

الموضوع لا يتعدى الخلاف الأبدي بين (آنتيغون) و (كريئون)؟

ليس الأمر كذلك قطعاً . فقبل كل شيء : ان حركات الرأي العام تتجه في معظم الحالات نحو العدالة والانسانية اللتين يظهر أن الجماعات المسيطرة والحكومات تنساهما . ومن جهة أخرى يبدي الرأي العام في الغالب معارضة ناجحة ضد المغامرات التي تدعو اليها جماعات محدودة . لا شك في أن كتلة من الجمهور قد تقدم في بعض الظروف على أشنع أعمال العنف ولكن الأكثرية الساحقة تشجب ذلك ولا تنحرف الى هذه الطريق . وفي الديموقراطيات الغربية يتحقق التوزان الى حد كبير بفضل هذه المقاومة السلبية التي تستنفد صبر المحرضين بينما ينبغي لهم في الغالب مقابلتها بالحمد .

ان المحافظة والتأني والاعتدال التي يتصف بها الرأي العام تعتبر من القوى السلبية دون شك وهي في ذاتها عقيمة ، ولكن يجب أن نعتبرها أيضاً أجزاء ضرورية في مجموعة لا يمكن لدماغ واحد أن يحقق ضمنها التوازن أو الحركة المتوازنة ، بل لا بد لذلك من مساعدة قانون الاعداد الكبيرة .

هل يمكن ان يخطيء الرأي العام :

يقول المثل : « صوت الخلق من صوت الحق » . ولا يستطيع أي شخص الادعاء بأن الحق معه ضد الشعب . ذلك هو رأي ان لم يكن عاماً وكلياً إلا أنه ينال كثيراً من أصوات الاقتراع .

كذلك يمكن طرح المسألة من وجهة فائدة الرأي العام . ورغم أن الأسطر السابقة قد زودتنا بعناصر الجواب فمن الأفضل ترك الموضوع معلقاً في الوقت الحاضر . إنه بالاستناد الى عدد كبير من الأمثلة فقط يستطيع القاريء تكوين رأي قد لا يتفق بالضرورة مع رأي المؤلف ...



الفصل الثالث

تكوين الرأي : الأخبار والحوادث

لا يمكن للرأي العام أن يتكون الا بعد معرفة بعض الوقائع والأوضاع . ولا شك أيضاً في أن موقف الرأي العام تابع لما يتميز به من صفة خاصة تختلف من بلد الى آخر . ان معرفة هذه الصفة ضرورية لفهم تيارات الرأي العام وبالأخص للتنبؤ بها . ولكن هذه الصفة التي هي ثابتة الى حد كبير لا تفيد الا كدعامة للمواقف المختلفة . انها من المعطيات الواقعية . أما العوامل المتغيرة فتتألف من الأخبار والمعلومات وهي التي سنتابعها وندرسها .

اعلام الرأي العام :

لسهولة العرض سنعتبر الجمهور أو الرأي العام هيئة أو كائناً عضوياً له حياته وقوانينه الخاصة متميزاً عن الأفراد الذين يتكون

منهم . وهذا التميز صحيح أيضاً بالنسبة الى الإعلام ومعرفة الوقائع .

قد يقال : ألا توجد هنا ، رغم ذلك ، مطابقة ؟ أليست الحوادث المعلنة على الأفراد معلنة هي نفسها على المجموع الذي يؤلف الرأي العام ؟ ليس الأمر كذلك بالضبط . فإن انتقال الأخبار يتضمن عمليتين : إرسال والتقاط . ومن الواضح أن الإرسال واحد سواء بالنسبة الى الأفراد أو الى مجموعهم . أما الالتقاط فإنه يختلف ، لأن الأشخاص يسجلون الحوادث بصورة متباينة حسبما يكونون مجرد أفراد أو أجزاء من كل (أي أعضاء في مجموعة) .

ولكي ندرك هذه الظاهرة بوضوح أكثر علينا أن نتابع الوقائع والأنباء في سيرها اعتباراً من منبعها .

حياة الأخبار والشائعة :

إن الحادث الذي يقع يؤثر في حواس الشهود . الا أن نقل ما رأى هؤلاء أو سمعوا لايتم في الحال ولا بصورة صادقة . إن جزءاً معيناً فقط من هذه الحوادث ينقل ويروى . وهذه الرواية قد تكون شفهية أو كتابية (الصحف والمؤلفات وغير ذلك) . والشخص الذي يتلقى الخبر يمكن أن ينقله بدوره أو يحفظه في ذهنه أو ينساه أيضاً . ان بعض الأخبار تموت بسرعة في حين أن غيرها يكتب لها حظ غريب في البقاء .

عدا ذلك فإن الرواية يمكن تشويهها إما عن قصد وارادة أو عن طريق عملية آلية تخفى عن الشعور أو بالأحرى عن ذاكرة الناقل . ثم إن النسيان وانقطاع الرواية يؤديان الى تشويه الوقائع في جملتها . فالأمر كله يجري كما لو أن مصفاة تحجز قسماً من مادة الإعلام .

يتم تشويه الأخبار واصطفاؤها حسب قوانين معينة بدأنا نعرفها جيداً في بعض الميادين على الأقل . وهذه القوانين ، رغم صفتها الكلية ، يمكن أن تتنوع حسب البلاد والعصور .

ان الأخبار السمعية ، الشفهية يمكن تشويهها بسهولة وسرعة أكثر من تلك التي تخضع لشيء من الرقابة . ولكن فحوى التشويهات واحدة في كل الحالات .

بعض قوانين الاصطفاء :

إن المراقب اليقظ والمجرد عن الهوى يمكنه أن يلاحظ كيف تصطفى الأخبار وتشوه ويستطيع بالاستناد الى عدد كبير من الملاحظات ، أن يستخلص القوانين التي تسيطر على هذا الاصطفاء .

لنترك جانباً ، في بادىء الأمر ، موضوع الأخبار المثيرة والبسيطة فموت (ستالين) مثلاً أو اعلان الحرب في سنة ١٩١٤ قد عرف أمرهما مباشرة في كل مكان تقريباً . كذلك لنترك جانباً الأخبار التي سرعان ما يستثمرها المحترفون لكونها صالحة للمسرح

أو للنكتة [ان الخبر عن حب رئيس الوزارة الفرنسية (مانديس - فرانس) للحليب قد ذاع خلال أقل من أسبوع في العالم الغربي كله] لنحصر اهتمامنا ضمن الميدان الاقتصادي والاجتماعي بصورة خاصة .

إن بعض الاحكام الشخصية متشائمة وبعضها متفائلة . لذلك فإن هذا المعيار وحده لا يمكن أن نهتدي به . ولكن الانحرافات تتبع في كل الحالات منطقاً عاماً ويمكن تلخيصها في خمس ملاحظات أساسية :

١ - عندما يتعلق الأمر بالمصالح المادية ، كما هي الحال على وجه العموم في الميدان الاقتصادي ، فان الانحرافات تهدف الى تسهيل الدفاع عن هذه المصالح .

إذا دعي الرأي العام الى قياس ارتفاع الأسعار فإن حكمه يبالغ في مقدار الارتفاع : ذلك لأن عدد المستهلكين يفوق عدد الباعة . ان صاحب الأجر المحدود ليس له من مصلحة في ازدياد تكاليف المعيشة ولكن لما كانت هذه التكاليف باقية كما هي فمن مصلحته أن يبدو الارتفاع في الأسعار خطيراً .

والمكلف الذي يصرح عن دخله تستولي عليه الدهشة إذا ما اكتشف مدى ارتفاع هذا الدخل بالاستناد الى البيانات الموضوعية التي يتلقاها .

خلال الحرب وفي أيام القحط كان كل خبر عن التبذير أو عن مجرد وفرة المواد الغذائية يقابل بالتصديق حتى من الأشخاص المعروفين بالرزانة . كان يكفي أن يسر شخص الى شخص آخر في غفلة بالقول أن معملاً يقلب الزبدة (الفرنسية) الى شحم لسيارات النقل (الالمانية) حتى يلقى هذا الخبر نجاحاً غريباً ويذيع في كل مكان . والشخص الذي اطلع قبل غيره على الشائعة قد يسمعها من جديد مرات عديدة وقد تضخمت في كل دفعة وأضيفت اليها تفصيلات جديدة دقيقة . وعلى العكس من ذلك كانت الأخبار السيئة عن المحصول لا تحدث صدى بعيداً .

فما هو سبب هذا التباين ؟

لم يكن للفرنسيين من مصلحة في التبذير ولكن كان يروق للفكر أن يعلم ، بعد حين ، بأن هناك تبذيراً . فان هذه المعرفة لم تكن تدعم الاستياء العام فحسب ، بل كانت أيضاً تغذي الأمل في إمكان تحسين الحالة . أما الاعلان عن محصول رديء فكان على العكس يعني اعداد المستهلكين لتخفيض حصصهم ولذلك كان الفكر يثور ويرفض رواية الخبر ، أو مجرد تسجيله .

٢ – عند ما يتعلق الأمر بالعواطف والأهواء فان الانحراف يتجه الى تسويغ هذه العواطف والأهواء والى تقويتها .

ان المؤمن يرى أو يسمع المعجزات التي لا يدركها المحايد .

والاخلاقي يرى الرذيلة في كل مكان وبذلك تقوى عاطفته . والمتمسك بالنظرية الكمية في النقود أو خصمه يرتبط كل منها بنظريته بروابط عاطفية قوية الى درجة تكفي ليرى كل منهما أن الوقائع تؤيده في اعتقاده . والعالم نفسه يشاهد بسهولة أن التجارب تدعم نظرياته عند ما تكون هذه النظريات شخصية من شأنها إثارة حب الذات .

لذلك عند ما تسيطر العواطف فان الرأي العام ينحرف في الاتجاه الذي يساعد على تسويغ هذه العواطف : في أوقات الحرب نرى الأخبار عن الفظائع التي يرتكبها العدو تصدق بسهولة ودون تمحيص .

٣ – عند ما يتعلق الأمر ، على وجه العموم ، بالوقائع المتصلة بقضية جماعية ، مشتركة فان الانحرافات تهدف الى تقوية ترابط الجماعة والى تسويغ النضال الذي تقوم به .

أثناء الحرب يتكون لدينا رأي ملائم عن جيوشنا ومواقفها ونجاحها وعن عدل قضيتنا لأن ذلك يزيد في ثقتنا ويدعمنا في نضالنا الداخلي المتواصل .

كذلك لابد لأعضاء الأحزاب المختلفة من أن ينظروا الى الوقائع نظرات متباينة . والصورة التي تنطبع لدى أنصار كل حزب من شأنها أن تؤيد اعتقادهم وتسوغ التضحيات الشخصية التي يقدمونها في سبيل قضيتهم كما انها تحول دون حدوث أزمة شك

تهدد الكيان الداخلي ؛

٤ - إن الانحرافات الحقيقية ، اللاشعورية وغير الارادية تتبع الاتجاه الذي كان يحتمل أن تسير فيه الانحرافات الشعورية الارادية دفاعاً عن الموقف الذي تبناه الشخص سواء من الناحية المادية أو الفكرية أو العاطفية .

وهذه القاعدة العامة ليس لها الا القليل من الشواذ .

٥ - عندما ينقل الشخص خبراً في سبيل الاجابة عن سؤال يوجه اليه فإن الانحراف يكون أقل مما لو أنه روى الخبر من تلقاء نفسه بسرعة . وكلما تجلى الجد والاهتمام عند طرح السؤال وأفسح المجال للتأمل قبل الاجابة كان الانحراف أقل شدة . واذا قامت اعتراضات مثل قولنا : « هل أنت على يقين من ذلك ؟ وهل حصلت على تأكيدات ؟ » تدفع إلى التأمل وقد تقلل من التشويه لاسيما إذا أبديت بهـــدوء واعتدال . وعلى العكس اذا استحوذ الانفعال والحدة على ناقل الخبر وهو يخاطب شخصاً يخشى من تشكيكه فإنه قد يمعن في تشويه الخبر وهو يحاول دعمه بذكر تفصيلات تهدف إلى التغلب على الشك والجحود . وما دام الراوي نفسه على يقين ، ولو دون أي مستند عقلي ، فإنه يرى من المفيد أن يساعد على انتشار « الحقيقة » بجعلها أقرب إلى التصديق . وأبرز مثـال على مثل هذا السلوك هو موقف « هنري المزيف »

الذي عهد اليه باتهام (دريفوس) ..

ان هذه القوانين المتنوعة لا تتضمن سوى لمحة عامة ، وهي لا تسمح باصدار حكم يقيني على اتجاه الانحرافات في كل حالة من الحالات . فقد تبرز أحياناً قوى متعاكسة لا سيا عندما يكون التفسير مبهماً . إنه من الضروري دراسة كل حالة بعناية لأن الشرط اللازم لنجاح المراقب هو التجرد التام من الهوى ، ثم إذا أمكن ، المصلحة من الشخصية.

الأرقام :

يسهل على الرأي العام معالجة الناحية الكيفية أكثر من الناحية الكمية . فهو عاجز عن أن يقوم بفحص انتقادي لمعطيات عددية وأن يضع كل رقم في مكانه ويرتب المجموع .

على أن الأرقام مفيدة حتى بالنسبة إلى رأي سطحي ، لأنها قد تسهل عملية النقل لما يلازم دقتها الظاهرية من وهم . فهناك مجال كبير للاصطفاء الطبيعي أو الاصطناعي بين الأرقام ؛ ومن الممكن أن يقتصر الاصطفاء على الأرقام « الصالحة » التي تلائم الفكر أو تدعم الاعتقاد . وليس هذا فحسب ، بل كذلك يمكن تطبيق الأرقام على موضوع آخر مختلف .

في سنة ١٩١٥ أدى هجوم (شامبانيه) إلى اكتساب أرض يتراوح عمقها بين (٢ — ٣ كم) على جبهة طولها (٢٥ كم) . وبصورة

عفوية أصبح الخبر في هـــذا الشكل : « لقد تقدمنا مسافة ٢٥ كيلومتراً » [كان مثل هذا التقدم ، حسب مفاهيم ذلك الوقت ، لا بد أن يحدث ثغرة كبيرة في الجبهة ويؤدي الى انتهاء الحرب بسرعة .]

وفي سنة ١٩٤٢ راجت شائعة قوية تقول بأن خسائر الألمان في الأرواح بلغت (٤ — ٥) من القتلى ؛ بل كانت هناك أرقام محدودة ، دقيقة يتناقلها الناس مستندة حسب رأي البعض الى تعداد حجارة القبور في القرى أو مستخرجة ، حسب رأي آخرين ، من احصاء قامت به شركات التأمين على الحياة . .

ان بعض الأرقام توحي أكثر مما تعلم . مثال ذلك القياس الذي أورده (مالتوس)[1] عن « قشرة الأرض النباتية البالغ سمكها (٠,٨٠ م) والتي يجب أن تغذي مليارين من البشر . » فإن التباين بين الرقمين (٠,٨٠) و (٢,٠٠٠,٠٠٠) مما يصدم ويثير

---

(١) « توماس روبرت مالتوس » (١٧٦٦ ـ ١٨٣٤) قسيس واقتصادي انكليزي ، اشتهر بكتابه عن « مبدأ تكاثر السكان وتأثيره في سعادة البشر » ، الذي يقول فيه بأن السكان يتكاثرون حسب سلسلة هندسية بينما لا يزداد الانتاج الا حسب سلسلة عددية ، فتكون النتيجـة أن يتعرض البشر الى المجاعة والبؤس ولذلك لابد من تحديد النسل . وتتكرر الإشارة الى هذه النظرية المتشائمة مرات كثيرة في هذا الكتاب وهي منتشرة في فرنسا والمؤلف يحاربها . (المترجم)

الدهشة . ولكن لما لم يكن هناك أي إشارة إلى مساحة السطح الذي يعيش عليه هذان المليارات من البشر فإن المقارنـة بين الرقمين لا تعني شيئاً فهي إنما استخدمت للايحاء والإيهام لاغير .

اذا لم توجد معطيات عددية عن موضوع يستحق الاهتمام فإن تقديراً تقريبياً بشأنه سرعان ما ينتشر ، لا سيما عندما يلائم هـذا التقـدير حكم الرأي العام المسبق . هكذا شاع بعــد حرب ١٩١٤ – ١٩١٨ نبأ يدعي بأن استهلاك اللحوم قد تضاعف ثلاث مرات منذ الحرب . ولما كانت الإشارة الى هذا النبأ قد تكررت في نشرات عديدة ازداد في نهاية الأمر رسوخاً وأصبح من الصعب زعزعتـه ..

ولننتقـل الآن من الرأي الذي يعبر عن نفسه بالأرقام إلى الرأي السائد حول الأرقام وعلى الأخص حول الاحصاء . لما كان الاحصاء من العلوم التي « لم يعترف بها » ولم تدرس فإنه لايحظى الا بقليل من الثقة . واحتداد (دو ستويفسكي) أو غيره على حصر الكذب في أنواع ثلاثة يتكرر كثيراً في البيانات ، لأنه من شأن حديثي الايمان الذين يظنون انهم كشفوا شيئاً جديداً . والانتقادات التي يوجهها بعض الخطباء إلى الاحصائيات لإظهار الشك في صحتها كثيراً ما يعقبها الاستشهاد بأرقام عديدة يأتي بها هذا الخطيب على طريقة السيد(جوردان) الذي كان لا يعلم انه هو نفسه ناثر واحصائي .

الظاهر المرئي والخفي العميق :

من الصعب ان يحصل الرأي العام على المعلومات الصحيحة حتى في الأمور التي تهمه أكثر من أي شيء آخر ، وعلى الأخص في أمور مثل تكاليف المعيشة أو الأجور أو الضرائب . فكل فرد إنما يصدر حكمه هنا حسب الظواهر المرئية والسطحية التي يسميها « مشخصة » ، لأنه ليس لديه الفراغ من الوقت ولا الوسائل الفنية للقيام بدراسة دقيقة . ولكن بعض المراقبين القلائل يوغلون في البحث بدافع المهنة أو النزعة فكرية خاصة ، وقد فرضوا على أنفسهم قاعدة مطلقة توجب عليهم أن لا يدّعوا سلفاً بأنهم يريدون إثبات أي شيء أو أنهم يأملون تحقيق أمر معين أو أنهم يخشون من النتائج . وعلى الرغم من هذه التحفظات فانهم لا يتوصلون في كثير من النقاط الى نتائج واحدة ولذلك تتكون لديهم آراء متباينة . وعند ما يكون الاختلاف بين هذه الاحكام كبيراً فان ذلك يبرهن على أن وسائل الملاحظة ليست كما يرام . وفي حالات أخرى قد تتقارب النتائج الى درجة يمكن معها ان نتكلم على حكم علمي واحد . ولكن هذا الحكم يختلف ، في الأغلب ، عن حكم الرأي العام . إنه يساعد أحياناً على التمييز الجازم عند انقسام الرأي العام الى معسكرين متضادين وليس من الضروري ان تكون نتيجة التمييز التي نتوصل اليها موجودة بين الرأيين المتنافسين .

هناك في المسائل الاقتصادية والاجتماعية بصورة خاصة تشخيص للرأي لعام وتشخيص موضوعي يبرزان بقليل أو كثير من الوضوح ، وهذا يؤدي بالضرورة إلى المنازعات لأن السلطة السياسية تأخذها الحيرة في هذا الصراع بين البشر والوقائع .

إن الملاحظة الموضوعية تستخدم الاحصائيات والجداول البيانية المدروسة إلى حد ما . وكلما ازداد الجدول البياني كمالاً كان أقرب إلى التعبير عن الواقع ، إلا أنه ، في الوقت نفسه ، يبدو أكثر تجريداً . لنأخذ مثلاً :

ان مجموع الأجور المدفوعة مسجلة بدقة في الاحصائيات التي تعين ، بعد بعض التعديلات ، على الحكم على حركة معدل الأجور وتقديرها على وجه التقريب . فنقول مثلاً أن معدل أجر العامل بين سنة ١٩٥٢ – ١٩٥٥ قد ارتفع من ٤٨٦ إلى ٥٦٠ بزيادة ١٥ في المائة . ولكن الرأي العام لا يقنع بهذا « التجريد » ولا بمعدل الأجر محسوباً بالفرنكات . إن السياسي والنقابي والصحافي يفضلون الاستناد في حكمهم إلى ما يقبضه عامل معين ، لأن ذلك شيء « مشخص » . ولكن هذا الأجر « المشخص » هو في الحقيقة أكثر خداعاً من الاجر الوسطي الذي يسمى « مجرداً » ، لأن الاول لا ينطبق إلا على حالة استثنائية قد تختار أحياناً عن قصد لتأييد هذه النظرية أو تلك .

النفوذ والتحصن :

كيف يمكن تبديل رأي ؟ عندما يطلع شخص على وقائع أو حجج تتعارض مع رأيه قد يجد نفسه في حالتين مختلفتين كل الاختلاف : اما أن يبدو عليه شيء من التأثر والقبول واما أن يظهر المقاومة والدفاع .

انه في الحالة الاولى ، يصغي بكل معنى الكلمة . والوقائع الجديدة قد تنفذ الى نفسه ، بل ربما تستقر فيها وتحدث شيئاً من « الاختمار » والتفاعل الباطني . أما في الحالة الثانية فإن الفكر الذي يشعر بأنه قد تعرض الى الهجوم يسرع الى الدفاع عن نفسه . ومما يستوعي الانتباه المهارة التي يبديها سواء رجال العلم أو الجهلاء في تحاشي الميادين الوعرة عندما يشعرون شعوراً غامضاً بأنهم على خطأ .

أما الرأي الجماعي فهو ، على وجه العموم ، أكثر احتراساً و « تحصناً » وأقل تفتحاً وقبولاً من الرأي الفردي . ومع هذا يمكن أن يتبدل هذا الرأي تدريجياً عن طريق تغيير رأي « الهوامش » أي الأشخاص « الفاترين » ، المترددين أو الحريصين على التمسك بالنظرة الموضوعية . وعلى العكس من ذلك فإن الرأي المعارض قد يزداد رسوخاً باكتساب أشياع جدد أو بتصلب القدماء .

وعندما يكون الرأي مضطرباً ، متوتراً فإنه قد يتحول بمجرد أثير التراخي والتهدئة والفتور . الا ان التغير في هذه الحالة يصدق على الموقف أكثر منه على الرأي .

ما فوق الطبيعة والعلوم الغيبية :

لننتقل الآن الى خلاف آخر بين المراقب الموضوعي والرأي . في كل زمان كانت تروى أخبار عن حوادث خارقة للطبيعة ومعجزات والخ .. وفي كل زمان كانت تسود خرافات وكان يعنى « بعلوم غيبية » ، بالنبؤة مرة وبالسحر أخرى ، وطوراً بالتنويم المغناطيسي وآخر باستحضار الأرواح أو اختراق الأشعة الكهرمغناطيسية أو بشفاء الأمراض والخ .. وإذا رأينا هذه الظواهر تزول ويحتل مكانها غيرها فان ذلك لا يكفي لاستنكارها جميعاً ما دام بعضها ، مثل التنجيم ، قد استمر على كر العصور .

وهي كلها ذات صفة مزدوجة :

أ – إن أنصارها يتحاشون الملاحظة العلمية ، الدقيقة . فهم يدعون مثلا ان وجود آلة للتصوير يمنع الأرواح من الحضور . ولم يقدم المنجمون أبداً على وضع إحصاء رصين يستند الى عدد كاف من التنبؤات ولا يقبل أي اعتراض . وهم يجهلون الاحصائيات التي قام بها غيرهم .

ب – إن الرأي العام لا يقابل أبداً مثل هذه الظواهر بالجحود

التام . ورغم إبداء التحفظات المعتادة واستنكار أعمال المشعوذين فهو يذهب الى « أن هناك ، على كل حال ، بعض الحوادث الغامضة المقلقة التي لم تفسر » .

هنا نصطدم بأحد أشكال الأسطورة الأبدية للهروب من الواقع . إنه من المشقة أن يعيش الإنسان وراء القضبان والحواجز وأن ينحني معترفاً بعجزه إزاء صلابتها . لذلك يجب أن لا تهمل أي فرصة للتحرر . أما الفكر القوي ، الصلب فلا يحظى بنظرة أفضل من تلك التي تسلط على محطّم الاساطير .

عدا ذلك فاننا ، إذا حذفنا الاصطفاء ، نستطيع أن نأتي ببراهين تجريبية ظاهرية تؤيد خوارق الطبيعة . فبين مئات المشتغلين بالأشعة « الكهرمغناطيسية » الذين يصدرون أحكامهم على حوادث جنائية لا يلتفت الرأي العام إلا الى الشخص الذي أعطى وحده معلومات صحيحة . وبين مئات من الأحكام ، حتى تلك التي تجمع دون قصد وتبعاً للمصادفات ، لابد من أن نجد دوماً ولو واحداً على الأقل يمكن أن يكون صحيحاً . وكذلك الأمر عند انتقاء المعجزات وحوادث شفاء المرضى والخ ..

ان تقلبات الرأي العام الفجائية نادرة . ويجب أن تكون هناك وقائع هامة للغاية حتى تحدث هذه التقلبات .

ذاكرة الرأي العام :

عندما يحدث اختلاف كبير في الرأي يشطر المجتمع والبلاد الى معسكرين فإن الحكم الفاصل بينهما يمكن أن تقرره فيما بعد الحوادث التالية . الا أن مثل هذه الأحكام اللاحقة نادرة بسبب التشويهات التي تطرأ على الذاكرة الجماعية أو بسبب فقدان هذه الذاكرة . وفيما يلي حادثة مشهورة شاذة عن هذه القاعدة العامة : قضية (دريفوس) ، واذا كانت هذه القضية قد انتهت باصدار حكم قطعي ، فذلك لأن :

- السؤال المطروح عملياً كان في منتهى الوضوح : اما براءة أو إدانة بجرم فظيع ؛
- جميع الفرنسيين تقريباً اتخذوا موقفاً حازماً في النزاع ؛
- جواب الوقائع أيضاً كان قاطعاً الى أقصى حد ممكن ..

ليس للرأي العام من ذاكرة قوية ، دقيقة في أغلب الأحيان. انه يهتم اهتماماً شديداً بالمسائل الحاضرة ولكنه يهمل بسرعة المسائل التي لم تعد بارزة في الميدان فيتخلى عنها الى المؤرخين . فالرأي العام في سنة ١٩٥٥ لم يعد يهمه أن يعرف هل كان احتلال منطقة (الرور) في سنة ١٩٢٣ عملاً ناجحاً أم لا ؟ ولا يقتصر السبب في ذلك على أن الأجيال الناشئة لم تعش في تلك الحقبة ولم يكن ، بالتالي ، في استطاعتها أن تتخذ موقفاً معيناً في الموضوع فحسب ، بل ان الاجيال السابقة أيضاً أصبحت منهمكة في مشاغل أخرى ..

ان الفرد نفسه لا يحتفظ بالذكرى الكاملة ، الدقيقة سواء عن الوقائع التي مرت بـه أو الآراء التي أبداها أو على الاخص العواطف التي شعر بها . وهو يحاول أن يعتقد بأنه كان على حق وينجح في محاولته هذه دوماً تقريباً . وعندما يتبين أنه كان مخطئاً حقاً تسعى الذاكرة إلى أن تنتقي بمهارة وعناية الوقائع التي تبريء الضمير ، بل قد يصل بها الامر الى طمس الحادث المزعج بالمرة .

للكشف عن الاخطاء التي يمكن أن نقترفها عن حسن نية يكفي أن نعيد ، بعد فترة طويلة ، قراءة ما سبق لنا كتابته في وقت معين ؛ فان هذه النصوص قلما تطابق الفكرة التي تكونت لدينا عنها فيما بعد .

على أنه من الصعب جداً ارجاع الرأي العام عن غيه اذا كانت ذاكرته قد شوهت مجرى الحوادث التاريخية . وبما ان الرأي العام لا يعير الحوادث الماضية إلا القليل من الاهمية فإن الامور التي تثبت صحتها مؤخراً لا يمكن أن تؤثر إلا في بعض الاختصاصين وحدهم لذلك ينبغي أن ننتظر انقراض المعاصرين وتكوين رأي تاريخي حتى تحظى الوقائع الحقيقية ولو بجزء من العناية التي تستحقها .

المخبر والمستخبر :

يتألف الرأي العام من أشخاص يرغبون في الحصول على أخبار معينة دون سواها ومن جهة أخرى هناك رواة أخبار محترفون أو موظفون

وصحافة وإذاعة والخ .. فما هي الروابط بين المخبرين والمستخبرين ؟

كل راوية للأخبار يرغب قبل كل شيء في أن يقرأ الآخرون ما يدونه أو أن يستمعوا الى ما يقوله سواءً أكان غرضه تجارياً أم غير تجاري . فهو إذن يحاول دوماً أن يرضي الآخرين قليلاً أو كثيراً ، بل إنه مرغم على ذلك أحياناً . وهذا ما يدفعه الى تفضيل الأخبار « المرغوبة » ، وبالاجمال الى تملق هذا المسيطر الذي هو القارىء أو السامع .

ولما كان التأثير الإداري للمخبر في الرأي العام سوف يبحث فيما بعد (راجع الفصل الحادي عشر) فلنقتصر الآن على استعراض ردود الفعل الطبيعية :

إن المستخبر يؤثر في المخبر ؛ كما أن الخبر ، بالمقابل ، يشفي غليل المستخبر . وعن طريق هذا التأثير المتبادل يتكون الرأي العام ويثبت وجوده ويزداد صلابة . هكذا نرى مثلاً مختلف الفئات الخاصة في فرنسا تجد دوماً منذ الحرب ما يغذي استياءها لدى الصحافة التي ينبغي لها ، بدورها ، أن تساير التيار على .ان المخبر قد يرتكب أخطاء تكنيكية تخطيطية في بعض الأمور ، لأنه لا يعرف أفكار المستخبر معرفة تامة . وما يظهر في نتائج الاقتراع من نجاح أو فشل لا يمكن ارجاعه دوماً الى تحول الآراء في هذا الاتجاه أو ذاك .

أما فيما يتعلق بالرسائل الواردة فانها ، حتى لو كان عددها كبيراً ، يمكن أن تعطينا فكرة خاطئة عن رغبات الجمهور ومطامحه ، لأن المراسلين ليس لهم صفة تمثيلية : فهم يؤلفون نخبة خاصة لا انموذجاً عاماً . ورغم هذه الصفة فإنهم يؤثرون دوماً في مدير الجريدة . ولا نعلم أن صحيفة من الصحف قد حاولت إجراء سبر دقيق بين قرائها بنشر استجواب في عدد معين من النسخ بنسبة واحد من عشرين مثلًا أو واحد من خمسين ..

إعلام رجال السياسة :

إن رجل السياسة الذي لا يقل رغبة عن الصحافي في معرفة الرأي العام ليس في موقف أفضل من غيره ، إذ إنه محاط بهالة أو بنوع من الغلاف يؤلف بيئة خاصة حوله . وهو إن كان نائباً وأراد زيارة دائرته الانتخابية فسرعان ما تتلقفه أيدي كبار الناخبين وأصحاب المصالح الذين يزودونه بالأخبار . وبذلك يطلع على رأي النقابات المهنية وغرف التجارة والخ ؛ ولكنه لا يتعرف بالضرورة إلى رأي الجمهور الحقيقي الذي تعبر عنه اصوات الاقتراع السري.

والرسائل تؤثر دوماً في الأشخاص المشتغلين بالشؤون العامة حتى لو كانوا يعرفون (في الولايات المتحدة خاصة) أنها ، في الواقع ، إنما أرسلت أو أوحي بها من هيئة اختصاصية لها جهاز

منظم . وفي الحقيقة من الصعب جداً حتى بالنسبة الى شخص سبق له الاطلاع على بواطن الأمور أن لا يتأثر ببضع رسائل خطية قد لا تمثل الا جزءاً ضئيلاً من الرأي العام .

الفصل الرابع

كيف نعرف الرأي العام ونتابع تطوراته

كيف يعرف الرأي العام ؟ ذلك هو السؤال الذي يطرحه كل يوم الوزراء والبارلمانيون والديبلوماسيون والصحافيون وأرباب المصارف ورجال الأعمال وغيرهم .

يبدو أن عمليات « السبر » أو « الاستقصاء » في الرأي العام لا تجري الا لهذه الغاية . وفي الواقع لابد هنا من ملاحظة فرق هام.

يجب على من يريد معرفة الرأي العام أن يتساءل في بادىء الأمر أي نوع من الرأي يقصده . وقد ميزنا بين تعاريف مختلفة منها اثنان على الأقل ينبغي دوماً التمسك بهما : الرأي الذي يعبر عنه بقوة ، ان لم يعلن عنه بالأبواق ؛ ثم الرأي الخفي، العميق لدى الأفراد .

الرأي العام وعمليات « السبر » :

ان عمليات « سبر » الرأي العام التي تجري منذ أكثر من عشرين عاماً تطبق بصورة منظمة وعلمية طريقة « العينات » [أو النماذج] القديمة في سبيل معرفة آراء الأفراد ، وتتضمن هذه العمليات وسائل رياضية (مثل تركيب « العينة » وحساب الخطأ المحتمل) ثم وسائل نفسانية (مثل انشاء الاستجواب ، تنظيم العلاقات مع المستجوب) . إننا لن نتكلم على الوسائل الاولى التي يأتي وصفها في مؤلفات خاصة ، كما إننا لن نتعرض إلا إلى بعض النواحي من الوسائل الثانية ونعني بذلك النواحي التي تهم الرأي العام .

فعمليات « سبر » الرأي ، حسبما تطبق اليوم ، لا توصلنا بالضرورة إلى معرفة « الرأي العام » بالمعنى الذي نقصده في الاغلب . وقد حان الوقت لتوضيح هذا الفارق الذي سبقت الإشارة اليه في الفصل الأول . لقد قلنا أن الرأي العام ، كما يعبر عنه عفوياً ، ليس عبارة عن اقتراع شعبي ، لأن الافراد لا يشتركون بالتساوي في تكوينه . أما القائمون بالسبر فإنهم ، على العكس ، يقصدون بصراحة جمع الآراء كافة . ويؤكد لنا هؤلاء في مؤلفاتهم أنه من الخطأ أن نتخذ نموذجاً (أو عينة) من الاشخاص الذين نصادفهم في الطريق أو الذين نستخرج أسماءهم من دليل الهاتف . وهم ، على العكس ، ينصحون بالذهاب إلى مقابلة المتكتمين

والمترددين ، وزيارة عجوز عاجزة ليس لها إلا القليل من الافكار حول موضوع السؤال ثم يطلبون أن نمنح رأي هذه العجوز ما نمنح من الوزن والاهمية شخصاً فنياً واثقاً من نفسه ويتمتع بصوت قوي . لذلك ينبغي أن لا نطمع ، بهذه الطريقة ، في معرفة الرأي العام الصريح ، العلاني بالمفهوم الذي سبق تعريفه في أول هذا الكتاب .

مثال : السكن

لقد أثبتت عمليات السبر والاستقصاء المختلفة لدى أصحاب المصلحة أن الفرنسيين ، رغم نقصان المعلومات حول هذا الموضوع ، يسهل عليهم أكثر مما نظن ، أن يقبلوا بدفع أجور أعلى . وهذا الموقف يتجلى لنا ، بطبيعة الحال ، على الاكثر عند الذين لم يجدوا مساكن أو الذين يسكنون في بيوت غير صالحة ويبحثون عن وسيلة لتحسين سكناهم .

في سنة ١٩٥٢ كان متوسط ايجار المسكن الذي تدفعه (١,١١٩) أسرة تألفت حديثاً في منطقة باريس يبلغ (٢٥) ألفاً من الفرنكات في السنة ، ولكن كل واحد من هؤلاء المستأجرين كان يصرح بأنه على استعداد ليدفع سلفاً ايجاراً سنوياً يبلغ (٤٩,٤٠٠) فرنكاً إذا وجد مسكناً يلبي حاجاته .

وفي سنة ١٩٥٥ أعلن (١٠,٣٥٢) شخصاً من موظفي مديرية

الشرطة في باريس ، الذين كانوا يفتشون عن مساكن ، أنهم يقبلون سلفاً ان يدفعوا ايجاراً وسطياً يبلغ (٧٥) ألفاً من الفرنكات أي أكثر بثلثين ونصف المثل مما كانوا يدفعونه (٣١,٠٠٠) عن مساكنهم التي لم تكن بالتأكيد كما يرام .

ان الآراء المعلن عنها على هذا النحو تتناقض مع « الرأي العام » الذي كان يذاع بعنف احياناً معارضاً كل زيادة في الايجارات الخاضعة لحماية الحكومة . ذلك لأن ممثلي الفئات ذات المصالح يدافعون عن هذه المصالح بحماسة أشد من حماسة الافراد الذين يسألون عن رأيهم شخصياً وبالتالي يبدو اولئك الممثلون أقل أدراكاً للمصلحة العامة .

هذا مثال واحد من أمثلة كثيرة أخرى . وهو يبين لنا أن الرأي العام الذي يعبر عنه بصوت عال يكون في الأغلب أقل ادراكاً من رأي الأفراد ..

تأثير عملية الاستقصاء في الشخص المستجوب :

ماذا يمكن أن يقال في صدق الأجوبة التي نحصل عليها بهذه الوسيلة ؟ فإن الأجوبة قد تختلف اختلافاً كبيراً حسب أسلوب طرح السؤال ، ولنذكر مثالاً (كلاسيكياً) :

في سنة ١٩٤٠ في الولايات الاميريكية المتحدة طرح السؤال ذاته على وجهين مختلفين :

الوجه (آ) : « هل تعتقد أنه ينبغي للولايات المتحدة أن تفعل أكثر مما تقوم به حالياً لمساعدة انكلترا وفرنسا ؟ »

الوجه (ب) : « هل تعتقد أنه ينبغي للولايات المتحدة أن تفعل أكثر مما تقوم به حالياً لمساعدة انكلترا وفرنسا في نضالها ضد هيتلر ؟

فكانت نسبة الأجوبة كما يلي :

	الوجه (آ)	الوجه (ب)
زيادة المساعدة	١٣ ٪	٢٢ ٪
عدم الزيادة	٧٥ ٪	٦٦ ٪
دون رأي	١٢ ٪	١٢ ٪

إنه لا فرق في الجوهر بين السؤالين . ولكن اضافة اسم (هيتلر) قد أدت الى ازدياد الأجوبة المؤيدة لسياسة التدخل بمقدار (٩ ٪) فهؤلاء الأشخاص ممن يسهل التأثير فيهم لم يريدوا أن يظهروا مجردين من الإحساس تجاه عدو من أعداء الديموقراطية .

لذلك من الضروري أن يكون القائم على الاستقصاء صادق النية كلياً الا ان هذا وحده لايكفي . فالمستجوب يجد نفسه ، رغم كل التدابير والتحفظات في موقف غير طبيعي . ولنترك جانباً الرغبة في مجرد الخداع ، فهي أندر من الانحراف اللاشعوري . ان المترددين والمحتارين هم الذين يميلون الى اظهار روح طيبة ويخافون

من ازعاج المستقصي أو من أن ينظر اليهم شزراً . حتى أن هذه الحالة النفسية المصحوبة بفرط الحساسية تجاه الأسئلة المتعلقة بالحقائق الواقعية (هكذا نرى في الميزانيات المنزلية التي يتوصل اليها الاستقصاء أن نفقات المشروبات الروحية لا تتعدى أبداً الحد الادنى) لتزداد حساسية ايضاً تجاه الاسئلة المتعلقة بالآراء والنوايا .

لنتأمل مثلاً في الاستقصاء الذي قامت به مفوضية التخطيط سنة ١٩٥٤ بين أصحاب الأجور لمعرفة ما سيفعله هؤلاء اذا هم نالوا زيادة تبلغ ٢٠٪ ؟ لقد دلت نتائج الاستقصاء على أن ٢٦٪ من هذه الزيادة سوف تودع في صناديق التوفير . وصرح (١٣) بين (٢٠٠) من أصحاب الأجور أنهم سوف يقتصدون الزيادة كلها ، في حين أن هذه النسبة ترتفع بين العمال الى ١٢٪ . ومن المحتمل ان يكون الأفراد قد أصبحوا أثناء الاستقصاء ، أقرب الى الفضيلة أو بالأحرى أقل تبذيراً واكثر توفيراً مما هم عليه في الواقع . على أن النوايا الحسنة سرعان ما تتلاشى اذا وجد الأفراد ما يستهويهم من عرض شيق واغراء جذاب . فعمليات سبر الرأي لا تلتقط اذن ، (مثلها كمثل آلة التصوير) الا المظهر «الآني» ، «الوقتي» لصورة متغيرة . لذلك يجب دوماً الانتباه الى هذه التحولات التي يمكننا ، على الأقل ، أن نتبين اتجاهها .

إن القائم بالسبر الذي يحرص على تحقيق هدفه كاملاً (١٠٠٪)

كثيراً ما يرتبك إذا هو لم يتلق أجوبة أو لم يحصل الا على أجوبة غامضة يقصد بها التملص . وتكاليف الاستقصاء ترتفع كثيراً إذا حاولنا التعمق في البحث لزيادة نسبة الاجابات من ٨٠ ٪ الى ٩٠ أو ٩٥ ٪ . على أن تدرج الأجوبة واتجاهها قد يساعدنا أحياناً على معرفة رأي آخر (جزء مربع) لايمكن الوصول اليه بطريق الحساب.

لنفرض أننا قمنا باستقصاء في شروط المعيشة والسكنى . فيتبين لنا أن الذين أصابتهم أسوء الحظوظ هم أكثر استعداداً للاجابة من المقيمين في مساكن جيدة وبالأحرى من أصحاب الامتيازات . ولنفرض أننا طرحنا السؤال التالي : « هل من رأيك أن يفرض على الساكنين في بيوت جيدة تعويض مالي كبير لمصلحة من هم أقل حظاً ؟ » ولنفرض أننا استخدمنا كل الوسائل للحصول على أكثر ما يمكن من الأجوبة ، في هذه الحالة كان من الممكن أن نتوصل مثلاً الى النتائج التالية :

	عدد الأجوبة من كل (١٠٠) شخص		عدد الموافقين من كل (١٠٠) اجابة	
	من الفئة المقصودة	مجموعين	من الفئة المقصودة	مجموعة
رسالة أو نشرة بسيطة	٢٧	٢٧	٧٥	٧٥
رسالة تذكير للمرة الاولى	١٦	٤٣	٥٩	٦٨,٨
رسالة تذكير للمرة الثانية	٩	٥٢	٤٨	٦٥,٤
زيارة اولى في المسكن	١٧	٦٩	٤١	٥٩,٣
زيارة ثانية في المسكن	٨	٧٧	٢٩	٥٦,٢
لا جواب	٢٣	٧٩		

تتلخص الطريقة المعتادة في أن نسعى الى تحديد الفجوة بين الفرضين المتعاكسين : اما ان يكون الذين لم يجيبوا (وهم ٣٣٪) جميعهم من الموافقين وأما أن يكونوا من المعارضين ؟ وبذلك نتوصل الى نسبة مئوية للاجابة (بنعم) تتراوح بين (٤٣,٢) و (٦٦,٣) . وهذه الفجوة كبيرة لا تفيدنا كثير معرفة . وفي الواقع فإن « المعاندين » المتخلفين عن الإجابة ستكون نسبة الاجابة (بنعم) بينهم دون (٢٩,٩) ، الأمر الذي يؤدي الى هبوط الحد الأعلى الى (٥٠٪) .

على أنه في الاستطاعة اتباع طريقة أفضل وتحديد النسبة المئوية الأكثر احتمالاً بالاستناد الى تناقص النسب المئوية للاجابة (بنعم) كلما ازدادت النسبة المئوية للأجوبة . ولكن النظرية الرياضية لمثل هذه الحسابات لم توضع بعد ، حسب معرفتنا .

معرفة الرأي العام المعلن :

إذا كانت طرائق الاستقصاء العقلية والحسابات الرياضية صالحة لمعرفة مجموع الآراء ، فليس الأمر كذلك فيما يتعلق بالرأي العام الصريح ، المعلن الذي هو ، في جوهره ، « كيفي » . وما من قاعدة تسمح لنا بأن نقرر وزناً معيناً لمقال افتتاحي في جريدة (الفيغارو) أو لرأي أعربت عنه غرفة تجارة (مارسيليا) . وعدا ذلك فان الظروف متقلبة الى درجة لا نستطيع معها القيام بمحاولة

لتطبيق طريقة عقلية في هذا الميدان . وأقصى ما يطلب منا هو ان نفتح عيوننا وآذاننا .

ولكن ، بالمقابل ، يستحسن هنا كثيراً اتباع قواعد اخلاقية . فمن أراد حقاً معرفة الرأي العام المعلن وجب عليه ان يسعى ليكون حيادياً بكل معنى الكلمة وأن يتحاشى كل اصطفاء وتمييز . انه من السهل جداً ومن المغري ان لا يصغي الانسان إلا الى أصوات اصدقائه . وعلى العكس فان بعض الشخصيات الضعيفة أو المضطربة ترغب في ان لا تستمع إلا الى الخصوم . ان نتيجة هذين الموقفين هي : إما التهور أو الحذر ؛ وفي الحالتين تنتهي الى الفشل .

يمتاز بعض الأفراد بقوة الاحساس والقدرة على « استشمام » ما يحيط بهم « واستنشاقه » . يقال أن (شيشري) استطاع في سنة ١٩٣٨ ، بعد محادثات قصيرة في أروقة مجلس النواب ، أن يخبر رئيس الوزراء (دالاديه) بنتيجة الاقتراع المنتظر في المجلس فلم يختلف تقديره عن الواقع بأكثر من صوت أو صوتين . ان الملحق البرلماني القدير يجب أن تكون لديه مثل هذه المقدرة التي يكتسبها بطرائق خاصة يتعذر تحليلها ووصفها .

إنما ينبغي لنا أن نلاحظ أن المشتغل بقياس الرأي العام له في المثال السابق هدف معين وهو : تقدير عدد محدود من الاصوات دون أن يقوم بتعداد حقيقي . ولكن عندما يتطلب الأمر

« قياس » الرأي العام في مجموعه فان المشكلة يتعذر حلها بطريقة عقلية لأن الغاية ذاتها ليست محددة .

الرأي المشترك والخبير الفني :

ان الخبير الفني أو العالم الذي تعمق في الدراسة الموضوعية لمسألة ما يلاحظ ، كما ذكرنا ، أن الأكثرية الساحقة من الناس لا تتبع رأيه . فالآراء تختلف في الأغلب ولكنها تتفق أيضاً أحياناً على نطاق واسع . في هذه الحالة يوجد بالنسبة الى الخبير الفني رأي عام يمكنه ان يرسم بصورة تقريبية إطاره . وعندما يتعلق الأمر بالعلوم الفيزيائية أو الطبيعية فان هذه المهمة تصبح سهلة نسبياً ، لأن نقائص الرأي العام في مثل هذه الموضوعات ترجع الى عدم المعرفة .

أما في المسائل الاجتماعية كافة فان الآراء تتأثر باعتبارات شتى منها أن الوضع الشخصي لكل فرد من الأفراد يلعب دوراً هاماً . إن تباين وجهات النظر يفسد الحكم ؛ وعندئذ ينبغي لنا أن نبحث عن النقاط المشتركة بين المذاهب والآراء المتناقضة وأن نسجل بعناية العوامل المشددة أو المخففة التي أشرنا اليها في الفصل الأول .

ان الملاحظة اليقظة ، الصابرة ، المتواصلة للآراء والمواقف تبين لنا ، مثلاً ، الى أي مدى قد انتشرت في اوروبا الغربية وعلى

الأخص في فرنسا الفكرة التي تقول بأن مجال العمل (وبالتالي عدد الوظائف) محدد تبعاً لقانون طبيعي . ونرى أصحاب العمل والفلاحين والعمال يستندون في محـــاكماتهم بصورة شعورية أو لا شعورية الى هذا المبدأ العاطفي الذي لا يؤيده أي برهان تجريبي . تلك هي النظرة « المالتوسية » .

وفي كل لحظة يفاجأ الجمهور ويصدم كثيراً من مختلف النواحي بما يقدم اليه من تشخيص للاحتمالات قائم على ملاحظات موضوعية الى أقصى حد ممكن ؛

على أنه لا يمكن تمييز الرأي المستند الى الخبرة والتجربة من غيره الا اذا كان الحكم الموضوعي فريداً ، أو على الأقل ، محصوراً ضمن ميدان يسود فيه الاتفاق . وقد أشرنا الى هــذه الصعوبة في الفصل السابق فلا حاجة الى أن نعود اليها هنا .

استخدام الآراء المغلوط فيها :

لا يستطيع كل من يسعى الى معرفة الوقائع أن يحصل دوماً على المعطيات اللازمة أو على وسائل القياس والتقدير . وهو إذ يضطر في هذه الحالة الى الرجوع الى الآراء يمكنه ان يستخلص الوقـائع الحقيقية على وجه التقريب إذا عرف اتجاه الانحراف في الآراء ومداه . لنأخذ مثلاً الشخص الذي يريد قياس سير الأعمال ، فهو يعلم أن المعلومات التي يقدمها أصحاب المصلحة مفعمة بالتشاؤم ، لذلك لا بد

له من تعديل الحكم تبعاً لهذه المعرفة . حتى إنه من الممكن تحديد هذا التعديل بالأرقام لو أن ملاحظات قد أجريت من قبل خلال فترة كانت الوقائع والآراء (المبنية عليها) معروفة فيها على السواء. والمثل القائل : « إذا لم تكن هناك اخبار ، فذلك وحده خبر حسن » يمكن تطبيقه هنا ايضاً . لنفرض ان الشكوى قامت في (قطاع) من قطاعات الاقتصاد واخذت الصحف تتحدث مدة من الزمن عن الحالة السيئة في هذا (القطاع) . ثم انقطعت الأخبار . فهذا دليل على ان الشر قد زال .

كيف نختار :

هناك سلسة من الحالات المتوسطة بين الرأي العام المعلن بالأبواق وبين الرأي العام العميق ، الصامت . ولنفرض ان هذه الحالات المتوسطة يمكن على الأقل تحديدها تقريباً ، ان لم يمكن قياسها . فأي واحدة منها يجدر ان نختار ؟ من الواضح انه ينبغي انتقاء الحالة التي تلائم الهدف المقصود دون غيرها .

لننظر في حالتين متطرفتين : الرجل السياسي الذي يحتاج الى إبداء الرأي حول مسألة من المسائل ، فإنه بدافع من شعوره بالواجب المدني ، قد يحاول أن يعرف آراء جميع الناخبين في دائرته بما فيهم الذين استنكفوا عن الاقتراع . وعلى العكس من ذلك يمكنه ايضاً ان يقتصر على سماع رأي السيد (س) ، امين سر

الكتلة (ع) (أو بالأحرى الجماعة التي تدافع عن مصالح فئة معينة) ، الذي يتلقى منه في كل شهر مظروفاً (مليئاً بالأوراق النقدية) .

بين هذين الموقفين المتطرفين مجال واسع لكل الحالات المتوسطة .

وهذا مثال آخر أقرب الى الواقع :

نائب في البارلمان يبحث في قضيـة تقطير الخمور في البيوت . إنه إذا ذهب الى دائرته الانتخابية في الريف ليحضر بعض الحفلات وبعض الاجتماعات المهنيـة اهتم بالرأي العـام الصريح الذي تعلنه النقابات والصحف والناخبون « الصراخون » والخ . أما اذا تقـدم الى مجموع الناخبين فالمهم بالنسبة اليه هو رأي الأفراد ، بمـا فيهم النساء ، سواء أعربوا عنه أو لم يعربوا ، أي انه يقصد الرأي العام الذي يمكن أن يكشف عنه الاستقصاء . ان النتيجة تختلف في الحالتين . على ان البارلمانيين في الوقت الحاضر ينقادون دومـاً للصراخ والضجيج ..

الفصل الخامس

أسطورة عالمية

« الماضي الزاهر » أو « العصر الذهبي »

من الأساطير التي تثير الاهتمام كثيراً لصفتها العالميـة أسطورة « الماضي الزاهر » أو « العصر الذهبي » التي تبرز بأشكال متنوعة ونجدها في حضارات عديدة .

العصر الذهبي عبارة عن فترة ماضية ، ليست محددة بالضبط ، كان البشر فيها يتمتعون بالسعادة . وفي مختلف الأديان تعود جنة عدن الأرضية في صور أخرى . واذا تابعنا سير التاريخ نجد هذه الأسطورة في صورة مشخصة أقرب الى الواقع لدى الأقوام الأكثر تمسكاً بالعقل حسب الظاهر . وحتى الباحث العلمي ليس في مأمن من الانقياد الى الأساطير . فهو عندما يبتعد عن ميدان اختصاصه،

الذي احتل فيه مكاناً عبوساً للمشاهدة والمراقبة، يشعر بالحاجة الملحة الى الانفراج فيترك عن طيبة خاطر العنان للتأملات والتصورات البعيدة عن العقل.

الوجهة الاقتصادية :

الرفاهية :

ان الموضوع العام بسيط : كانت الحياة قديماً أكثر سعة وسهولة مما هي الآن . فالمتقاعد ، مثلاً سيقول لك : «أين الزمان الذي كانت فيه قطعة لحم البقر تكلف ستة (أسواء)[1] وكان ثمن الحذاء لايزيد على (٢٠) فرنكاً ؟ » وكل من يسمع اليوم بمثل هذه الأرقام يخيل اليه أنه في حلم فيهرب في الحال من الواقع ويتلذذ بفكرة الخلاص من الضيق – لو ان الاسعار ما زالت في ذلك المستوى . وهو يفرض ، سواء بصورة شعورية أو لا شعورية أنه سيحتفظ دوماً بدخله الحالي .

والذين يحرصون على استمالة الناس وكسب رضاهم ، يستخدمون هذه الاسطورة على مقياس واسع بحسن نية ، لأن التهرب من الواقع والاستسلام الى الاحلام مما يدعو الى الارتياح واللذة . لذلك لا نسمع أبداً حديثاً في الاذاعة ولا نقرأ أبداً مقالاً سهلاً في الصحف يصرح بأن البشر كانوا قديماً يعيشون في حالة أسوأ مما في الوقت الحاضر .

---

(١) جمع سو (Sou) وهو جزء من عشرين جزءاً من الفرنك .

وفيما يلي مثال نموذجي مقتبس عن مقال في « جريدة جينيف الفرنسية » بتاريخ ٢٢ أيلول ١٩٥١ :

« لو استطاع أجدادنا بحيلة من الحيل أن يعودوا الى الأرض لمشاركتنا في احدى وجبات الطعام لأخذنا الدهش مما سيظهر على وجوههم من علائم الاستياء ، ذلك لأن بطوننا قد ضعفت وتضاءلت بسبب الحرمان والقيود واضطراب الحياة العصرية والازدياد المستمر في أسعار المواد الغذائية الضرورية . ولا بد أن تشكو بطوننا وتستغيث لو فرض علينا أن نأكل شيئاً من أطعمة أجدادنا أو أن نحضر احدى مآدبهم التي كانوا يقدمون فيها عدا الفطائر وأنواع الطيور أربعة أنواع أو خمسة من اللحوم المشوية .. »

لا تقتصر الأسطورة على الغذاء خاصة ، بل تشمل سائر مظاهر الحياة : كانت الثياب قديماً أغنى وأجمل سواء لدى الفلاحين (في أزيائهم المحلية) أو لدى البرجاسيين من سكان المدن ؛ وكانت المساكن أوسع والسقوف أعلى والجدران امتن ؛ وكانت مختلف الأشياء من أجود الأنواع سواء الاحذية أو الاثاث والخ .. ويبدو أن الأخبار كلها متفقة على أن الحياة أصبحت أكثر صعوبة وقساوة مما في القديم وأن البشر قد انتشر بينهم الفقر .

على أن الدراسة الموضوعية لمستوى معيشة السكان في العصور الماضية نقودنا الى حكم يختلف تماماً عن ذلك . والبحث لا يدور

هنا حول السعادة التي لها مفهوم شخصي وإنما حول شروط الحياة المادية والكميات المستهلكة . وهذه الشروط أصبحت اليوم بالنسبة إلى اكثر الطبقات أفضل مما كانت عليه في أي وقت مضى . ففي عهد (المارشال فوبان) والاقتصادي (بواغيبر) حوالي سنة(١٧٠٠) كانت القدرة الشرائية للعمال الزراعيين لا تبلغ سوى ثلث الحد الأدنى الضروري للمعيشة . [راجع كتاب : جان فوراستيه عن استخدام الآلات والرخاء .] والمشكلة لم تكن قائمة حول مستوى المعيشة ، بل حول الحياة نفسها . ان آخر مجاعة حقيقية في فرنسا ترجع إلى سنة (١٧٠٩) ، ولكن حتى بعد ذلك بمدة طويلة كانت هناك سنوات قحط . عدا ذلك فإن مستوى المعيشة كان في المعتاد منخفضاً جداً . وقد كان اللحم يعتبر ترفاً كبيراً في كثير من الأسر ، ناهيك عن السكر .

وفي القرن التاسع عشر ، على الرغم من التقدم الاقتصادي الذي تم تحقيقه في المنسوجات والزراعة والسكك الحديدية والخ ، كان العمال والفلاحون لا يزالون في بؤس شديد . وقد كان العمر المتوسط لدى عمال (مولهاوز) الذين شملهم استقصاء (فيللرمي) دون ٨ سنوات (وهو يزيد في الوقت الحاضر على ٦٠ سنة) ، مما يدل على كثرة الوفيات بين الاطفال .

وفيما يلي شهادة من ذلك العهد : « من المعترف به أن ١٢

ساعة عمل في اليوم ليست مدة زائدة على الحد بالنسبة الى أطفال تتراوح أعمارهم بين ١٢ و ١٨ عاماً ؛ ولم ترتفع أبداً أي شكوى من نتائج العمل المحدد على هذا الوجه . » إن لنا في ذلك عظة وعبرة ؛ ولكن ماذا نقول اذا عرفنا أن هذه الكلمة قد كتبها المصلح الانساني الكبير (دوجيرندو) عضو المجلس العام لملاجىء باريس ؟

قبل الثورة الفرنسية لم تكن كلمة « عطالة » مستعملة بعد ، ولكن الآفة نفسها كانت ، خلافاً لزعم شائع ، منتشرة اذ ذاك اكثر مما في الوقت الحاضر . ولما كانت الأعمال قليلة في الزراعة لنقص الأراضي كان الناس أحياناً يستعيضون عن العمل الزراعي بفرض العمل في البيت على الفلاح . وكان على النساء أن يغزلن دون انقطاع في كل لحظة من اوقات الفراغ .

وقبل مائة سنة فقط كان الفلاحون في بعض مناطق فرنسا ، إذا ذهبوا الى حفلة في القرية المجاورة ، يسيرون حفاة في الطريق ولا يلبسون أحذيتهم إلا للرقص ثم ينزعونها من جديد ليعودوا حفاة الى بيوتهم . وقد كانت الاحذية تنتقل بالإرث من جيل الى آخر .

ان سفوح جبال (قوس) و (بروفانس العليا) و (البرنس الشرقية) و (فوريز) وغيرها ما زالت تشاهد فيها جدران صغيرة

من الحجارة ، قد تهدم نصفها ، كانت قديماً تحمي المزروعات في الارض المتدرجة . ولفلاحة حقل صغير لا تزيد مساحته على (٣٠) متراً مربعاً ، محاط بجدار من الحجارة الصلبة ، كان ينبغي على الدوام اصلاح الأضرار الناشئة عن الاستعمال والامطار والخ ، كما كان يجب على الناس أحياناً أن يحملوا التراب على ظهورهم بالقفف . وهذا يعطينا فكرة عما يمكن أن يكون عدد ساعات العمل الضرورية لجني محصول يبلغ (٤٠) أو (٥٠) كيلو غراماً من البطاطا .

اذا كان البشر قد هجروا بلاداً مجدبة الى هذا الحد ، حيث عاش آباؤهم ، فذلك لأنهم استطاعوا أن يجدوا عملاً آخر يعتبر نعمة مهما يكن أجره زهيداً .

ان سكان المدن كانوا يتمتعون ببعض الخيرات التي لا يحصل عليها الخدم في الوقت الحاضر ، ولكنهم من جهة أخرى كانوا يستضيئون بالشمعة وتنقصهم التدفئة الصحيحة ، فلا يسافرون ، ولا تجري لهم عمليات جراحية دون تخدير .

في سنة ١٩١٤ كانت مدة العمل في الغالب عشر ساعات في اليوم . ولم تكن هناك تعويضات عائلية ولا مساعدات في حالة المرض أو الشيخوخة أو غير ذلك وكان كل مرض ينقلب الى فاجعة في أسرة عمالية تغرق في أعمق الشدائد وتعيش في منتهى

البؤس (أسوأ من حالة التسول والبغاء والخ) . وكان الأطفال في كثير من قرى فرنسا يسيرون حفاة قبل الحرب العالمية الأولى .

ان هذا التشهير بمآسي البؤس في الماضي لا يعني مدح الزمن الحاضر ، وانما ذلك تقرير للواقع ووضع الأمور في نصابها ، مما تؤيده أيضاً آراء الزمن الماضي الذي نبالغ اليوم في تمجيده . وحوالي سنة (١٩٠٠) ، في تلك الحقبة الجميلة ، التي لم تكن تسمى هكذا ، كانت الشكاوى من الحالة الراهنة لا تحصى .

فتعبير « الزمن القديم الطيب » يتكرر في كل زمان .

الظواهر غير الاقتصادية :

ان الأسطورة تظهر في ميادين أخرى أيضاً ويمكن أن تصادفنا في أكثر الظروف تناقضاً : فنرى جنوداً قاتلوا في حرب ١٩١٤ — ١٩١٨ ، ممن شاهدوا جحيم (فردون) ومعارك (الصوم) ، يلتقون فيما بعد في « جمعية المحاربين القدماء من فرقة المشاة الثامنة عشرة » فيرجعون بالذكرى الى « الايام الطيبة » التي قضوها في في الخنادق . ان حماقات وكيل الضابط وقساوة درجات الحرارة والمتاعب والأخطار والجروح كلها تصبح مادة للتذكر والتفكهة ..

وفي « جعبة » كل أسرة تتجمع كذلك أساطير عائلية من العبث أن نحاول مكافحتها ، لأن هذه الأساطير كلها رواها أحد

أفراد الأسرة ازدادت تفصيلا وزخرفة .

كتب (جيرار باور) في مجلة « الوقائع » ، عدد تموز ١٩٥٠ تحت عنوان « الحقبة الجميلة ... الحقبة العظيمة » يقول : « اننا نعود الى نصف القرن الذي انقضى . فما أجملها من حقبة ! قد يبدو مبتذلاً أن نؤكد ذلك ولكن لا بد من الكتابة مرة أخرى لنقول أن تلك الحقبة تمثل لحظة سعيدة في حياة البشر الطويلة .. إنها نقطة التقاء عصرين ، انطوت في ختام أحدهما مرحلة طويلة من الأمن ، وبدأت مع الثاني خطوة نحو مستقبل قاس.. في هذه النقطة تجمعت كنوز .... » يجدر بنا أن نلاحظ قول الكاتب : « قد يبدو مبتذلاً أن نؤكد ذلك ... » (فهو يغنينا عن التعليق) .

الرجال :

عندما تختفي احدى الشخصيات تميل الآراء فجاءة الى المحاسنة تجاهلها . إن عيوبها وأخطاءها وانحرافاتها تتلاشى أو تتجسد في صورة « سجايا ذاتية مميزة » وفي الأغلب يخيل الى الحاضرين أنهم يشهدون تواري رجل « لن تلد النساء مثله » .

في كل العصور كانت ترتفع الشكوى من فقدان الرجال السياسيين . ويسود دوماً الرأي القائل ان « سلالة رجال الدولة العظام قد انقرضت » والمتقدمون في السن الذين عرفوا (بوانكاريه) و (بريان) يميلون الى الاعتقاد أن الرجال الجدد ، الحاليين

لا يضاهونها . ذلك لأننا نحتفظ في ذاكرتنا بصور منمقة . وبحق يقول (آلن) : « يبدو الرجال العظام في الذاكرة أعظم مما هم في الطبيعة ، ذلك لأن ما نلاحظه عليهم أحسن ما فيهم وأحسن ما لدينا على السواء . »

الرياضة ، المسرح ، الصحة :

ما أكثر الأساطير في ميدان الرياضة ! فالرياضيون المتقدمون في السن يقولون لنا ان أبطال اليوم لا يضاهون أمثالهم في الأيام الماضية . كذلك يؤكد هواة السباق القدماء أن الخيل آخذة في الانحطاط أو على الأقل ليس بينها من استطاع أن يحتل مكان الفرس المسماة « الزوبعة » أو « القنطرة الثانية » أو الحصان المعروف باسم (فارس) والخ ...

بل اننا نصادف الحنين الى الماضي الزاهر حتى في بيئة المجرمين ونرى « ماكس الكذاب » [الذي لا بد ان يكون شخصية مستوحاة من نموذج واقعي] يشكو من ان الشبان قد أفسدوا « المهنة » .

وفي المسرح تروى الأساطير عن المؤلفين والممثلين على السواء . وكان الناقد المسرحي (سارسي) قد وضع قائمة طويلة رتب فيها المؤلفات التي تبحث في انحطاط المسرح ترتيباً زمنياً .على ان المسرح في الواقع يتطور مثل جميع الأشياء الحية ؛ فهو يفقد الفروع الميتة ولكن سرعان ما تنبت له أغصان جديدة . ان بعض الذين لا يرون

سوى الأغصان الميتة يرثون لهذه الخسارة . ومن هنا نشأت معركة « هرناني » الأبدية التي تلازمها دموع لا تنقطع على القبور [١] .

إن الرجل الذي يمتاز بصفة نادرة لا يعوض ابداً ؛ والذين يأتون بعده قد يكونون ايضاً عظماء ولكن ليس بالمعنى نفسه . فهناك اليوم ممثلون عظام كما في الأمس ولكن لا مجال للمقارنة . وعند ما سينتهي (موريس شفاليه) أو (فرناندل) سيقول المعاصرون أيضاً إن أحداً لا يستطيع أن يحل مكانهما ..

اننا نحتفل بمرور مائة سنة على ميلاد فلان ... ولكن هذه الولادة لما حدثت في وقتها لم يدر بها أحد .

وعلى مر العصور استقرت أسطورة « الشيخ القوي » الذي يتجاوز عمره المائة سنة بفضل انصرافه الى العيش في الطبيعة . وقد عادت هذه الأسطوره مؤخراً بصورة غير منتظرة ، في صحيفة سوفياتية أكدت ان الناس في القفقاس يعيشون مدة طويلة جداً لانهم يظلون أقرب الى الطبيعة ..

بين كل مائة شخص استجوبهم المعهد القومي لدراسة السكان خلال استقصاء بطريق السبر أجاب (٥٩) فقط أنهم يعلمون أن

---

(١) يشير المؤلف هنا الى المعركة التي نشبت عند تمثيل رواية (فيكتور هوغو) بهذا الاسم لأول مرة سنة ١٨٣٠ بين المشاهدين من أنصار الفن الكلاسيكي وأنصار الفن الابداعي (الرومانتيكي) . (المترجم)

نسبة الوفيات قد نقصت منذ مائة سنة .

إن هذا الرأي الثابت يظهر بخاصة في صورة أسطورة تسمّى بأسطورة التفسخ يرجع تاريخها الى زمن قديم جـداً . وهي تولد مجدداً من حين الى آخر وتظل دوماً حية رغم الضربات التي يوجهها العلم اليها . وكل خبر أو إعلام عن انحطاط الجنس البشري يلاقي صدى ملائماً أو تصديقاً لايستند الى أي برهان ..

التفسير العام والتأويل :

كيف تتكون الأسطورة ؟ ولماذا لا تحطمها الوثائق ؟ إن السبب الأساسي أو بالأحرى العملية الآلية في نشأة الأسطورة هو الاصطفاء المنظم ، فالاصطفاء يشمل كل شيء : الوقائع والارقام والأشيـاء والذكريات والخ .

تخضع الوقائع لاصطفاء مزدوج : آلي ونفساني .. يأتي مثلاً ، ذكر نوع من الاطعمة القديمة أو يصنع هذا الطعام مرة فيتحدث عنه بحماسة ولا يكون بطبيعة الحال إلا من الأطعمة الغنية ، الجيدة . أما الطعام الفقير من البقول أو الحساء الخفيف فلا يستشهد به أبداً ولا يشار اليه . ذلك لأن قوائم الأطعمة الدسمة وحدها هي التي تكتب وهي التي يكون لها بعض الحظ في أن تنتقل إلى الأجيال التالية .

ما هي الأوابد الأثرية التي تنتقل الينا من العصور الماضيـة ؟ إنها أحسن الأبنية وأجملها وأصلحها لمقاومة عاديات الدهر . وكذلك

الأمر مع الاثاث واللوحات والثياب والأقمشة والروايات المسرحية والقصائد والأغاني وطرائف النكت . أضف الى ذلك أن الفكر لايبذل أي جهد لمعارضة الاصطفاء الطبيعي . إنه على العكس يدعمه لأن الأساطير مستحبة ، بل أدعى الى الراحة والطمأنينة . إن مصاعب الحياة لا يمكن تحملها دون شيء من العزاء . وفي الحقيقة اننا نشعر بارتياح كبير عندما يكون لدينا موضوع نشكو منه وعندما نستطيع أن نقول : « لقد كانوا قديماً سعداء ، في حين أننا ..... »

ان هذا الشعور الأبدي قد يزداد قوة أو يضعف حسب العصور والبلاد . ولا شك في أن المنازعات الاجتماعية توقظ الفكر الذي أصبح كثير المطالب في عصرنا هذا . والشرط الأول للمحافظة على قوة المطالبة ، سواء في الناحية المهنية أو غيرها ، هو الاعتقاد بأننا ضحية . وسنعود الى هذا الموقف فيما بعد ...

عدا ذلك يجب أن لانخلط بين وفرة الخيرات المادية ومصاعب الحياة .

ان شيخوخة السكان ، أي ازدياد نسبة المتقدمين في السن ، تساعد أيضاً على دعم الأساطير ، لأن الشيخ يميل الى الحسرة على زمن صباه . وهو عندما يعجز عن مؤالفة التبدلات يشعر بالحنين الى شروط الحياة الماضية .

ان الجيل الهابط يعلم الجيل الصاعد فيصف له الأوضاع الماضية في مظاهرها الجميلة ، الملائمة ، وبذلك يلقنه الأسطورة في قالب اعتقادي محض . ان بين الذين عرفوا حقبة (١٩٠٠ - ١٩١٠) رجـالاً لا يزالون يستطيعون المناقشة فلا يتحمسون لتلك الحقبة إلا قليلاً . أما الشبان الذين يعجزون عن الدفاع عن أنفسهم فلا يمكنهم إلا أن يؤمنوا بالسعادة التي ضاعت . ان الافلام والمقالات وإذاعات الراديو لا تتحدث اليهم إلا عن الأغاني والرقصات والاسعار المتواضعة والحياة السهلة ، وعن « ثلوج ذلك العهد البيضاء . . »

إن هذه الاسطورة كغيرها من الاساطير لا تتراجع إلا مؤقتاً أمام العقل والوقـائع . نعم ان الفكر يذعن لما يوضع أمامه من وثائق تكشف له عما تم من اصلاح وتحسين . ولكن هذه الهزيمة مؤقتة .

بل الشخص المطلع ، العارف ينتهز أول فرصة لا سيما عندما يجد نفسه مع الآخرين للعودة الى أوهامه التي هي بلا ريب ضرورية للمحافظة على توازنه النفسي ..

الفصل السادس

أسطورة الرخاء

إن هذه الأسطورة التي لها صفة عالمية أيضاً ، ترجع جذورها الى عهد قديم جداً ، كما هي الحال مع الأسطورة السابقة . والأسطورة الثانية مكملة للاولى . انها تضيف الى مجرد الذكرى عن عهد ميت الأمل في حقبة سعيدة .

نصادف أسطورة الرخاء بأشكال مختلفة في كل عصر وفي كل الحضارات . لأن الجوع والعوائق الاجتماعية ومساويء نظام الحكم تبعث على نشوئها حتماً .

في الأساطير الرومانية نجد الاهة خاصة بالرخاء هي (اوبس) ، ذات القرن السخي . ويتحدث الكتاب المقدس عن مضاعفة الخبز وعن تحويل الماء الى خمر والخ . كذلك يمكننا أن نربط بين

لأسطورة وبين مظاهر السراب في الصحراء ، وإن كانت هـذه أكثر تشخصاً .

يذكر (هـ . داقري) ان قبائل الكفر (في افريقية الجنوبية — الشرقية) قـد انقادوا مرتين في أقل من ستين سنة إلى الطقوس السحرية وانتظروا أن يجري اللـــبن في الأنهار . وكان ذلك في عهد قريب جداً .

وفيما يلي مقطع من كتاب « الخبز لمليارين من البشر » تأليف (آنطون زيشكا) ومن منشورات مكتبة فلاماريون : « ان الخوف من الجوع ومن البؤس المستمر ومن العمل الدائم قد ولد في جميع الحضارات ومنذ آلاف السنين أوهاماً ورؤى مثالية تصور لنا بلاداً جديدة ، مطهرة ، تنبت فيها كروم العنب بالآلاف وتنضج حبوب القمح حتى تصبح في حجم « كلى الثور » وتجري فيها أنهار من اللبن والعسل . وفي جميع الاساطير والخرافات تتكرر هذه المعجزات التي تتغلب بسهولة على الجوع . . . »

وهذا (توماس موروس) ، أول « الطوبائيين » قد وصف لنا حضارة استطاعت بفضل التنظيم العقلي أن تقضي على عبودية الجوع والعمل . وهو يقول : « عندما نتخلص من التبذير ولا يبقى مجال لإضاعة الوقت فإن ست ساعات من العمل يومياً سوف تكفي لتأمين الرفاهيـــة الضرورية للبشر . » وكثير من الطوبائيين أو

الخياليين الآخرين قد أعربوا عن فكرة مماثلة دون أن يؤيدوا هدف أحلامهم بأي طريقة حسابية .

مذهب الرخاء :

وقد برزت اسطورة الرخاء في صورة أقرب الى البحث العلمي خلال هذه الايام الاخيرة . اننا نلمسها في بعض المذاهب الاقتصادية الناشئة عن حادث الاستهلاك الناقص (كان « بواغيبر » و « لوف » من أقدم القائلين بذلك) . وفي القرن التاسع عشر جاء (سيسموندي) بآراء قريبة من آراء « دعاة الرخاء » في الوقت الحاضر ولكن بصورة أكثر يقيناً .

ولد هذا المذهب الحديث أثناء الازمة الاقتصادية الكبرى سنة (١٩٢٩ – ١٩٣٥) ، في الحقبة التي كان يبدو فيها أن المجتمع يفيض بالبضائع والتي أقدم فيها على إبادة المحصولات بينما كان معظم البشر تنقصهم الحاجات الضرورية . ان ظاهرة « البؤس ضمن الوفرة » ما زالت قائمة حتى اليوم .

وقد كانت فرنسا هي التي كتب لهذا المذهب أن ينجح فيها وينتشر أكثر من غيرها . ولعل السبب في هذا السبق يرجع الى المهارة في الدعاوة التي اتصف بها مؤسس المذهب والمدافع عنه (جاك دوبوان) ، ولكن يجب أن نعلل ذلك أيضاً بنقصان الشجاعة المدنية لدى الفرنسيين وبنمو الروح « المالتوسية »

في فرنسا .

من اللامحدود الى اللامتناهي :

يستند المذهب الى عيوب الرأسمالية ومفاسدها الكثيرة فينتقدها بحجج قوية ولا يقتصر على التشهير بإبادة المنتوجات عن قصد لتصبح نادرة وترتفع أسعارها ، بل يفضح أيضاً الحد من تشغيل النـاس والآلات وينسب ذلك إلى الفساد في عملية التبادل .

كل هـذا الجزء من المذهب إنمـا يعيد بعبارات أشد لذعاً الانتقادات ذاتها التي يوردها أصحاب المذاهب المختلفة في منـاسبات كثيرة أخرى . أما الناحية التي يبتعد فيها المذهب عن كل علم وحتى عن الفكرة الماركسية فهي أنه لايقوم بأي قياس أو إحصاء وانما يعتمد على مجرد التأثير الانفعالي . فهو ينتقل بسهولة من المجهول أو غير المقيس الى غير المحدود الذي يتقرب ، كما هو معروف ، من اللامتناهي . وهذا المسلك اللاشعوري يقود دعاة الرخاء الى الاعتقاد بأن كل شيء ممكن منذ الآن وأنه يجب على كل حال أن لايرفض أي شيء .

أن فقدان القيـاس الذي يصبغ المذهب بطابع اسطوري يتجاوب مع الأماني العميقة لدى الرأي العـام الذي يمل استبداد المتمسكين بالمقاييس والحسابات . للخلاص من المقاييس والحسابات يكفي أن نستسلم إلى الأحلام دون الوقوف عند حدود ثابتة .

وهناك مثال بارز لهذه الحالة الفكرية يرجع الى عهد التقنين والضائقة الشديدة سنة ١٩٤٥ - ١٩٤٦ : فقد برز اذ ذاك كثيرون من « رواة الأخبار » بين مخلصين وأصحاب أغراض كان همهم أن يقدموا الى الجمهور أخباراً متفائلة عن التموين . وكان موضوع كلامهم هو أن هناك سكراً ولحماً ومساكن . وكلمة هناك كانت صالحة للغرض على أحسن وجه . فقد كان الدعاة يتحاشون أن يذكروا بالأرقام كمية معينة وأن يحددوا مثلاً عدد أصحاب بطاقات التموين ؛ انهم كانوا يستخدمون مفهوم (غير المحدود) لتوليد انطباع (اللامتناهي) .

هذه الطريقة في المحاكمة أو الاستدلال معروفة لدى الرأي العام في عهود أخرى فقد كان الرأي العام بين سنة ١٧٥٠ وسنة ١٧٩٠ يقول بمبدأ الحرية . وكانت الامتيازات والمظالم والتعديات ظاهرة للعيان الى درجة جعلت دعاة مذهب الرخاء اذ ذاك يعتقدون مخلصين أن جميع المشاكل المعلقة سوف تحل في اليوم الذي تستأصل فيه تلك الشرور . وبتأثير هذا الاعتقاد نكاد لا نجد أحداً في عهد الثورة يبحث في مشكلة السكان التي كانت قد شغلت الأفكار خلال القرن الثامن عشر . فقد كان دعاة المذهب الحر يعتقدون أنه لن يكون هناك خطر من تناقص السكان أو ازديادهم عندما يزول الحكم الملكي الاستبدادي وتختفي نتائجه . هنا أيضاً نرى كيف يؤدي

فقدان المقاييس إلى مفهوم اللامحدود .

لنعد إلى مذهب الرخاء : ان الناحية الانشائية فيه تكاد أن تكون غير موجودة بسبب فقدان المقاييس . فهو يقول : يجب توزيع المنتوجات أو القوة الشرائية (أي النقود) في سبيل خلق سوق للتصريف . يجب أن لا نبحث في الأسطورة عن المنطق العقلي لأن هدف الأسطورة هو بالضبط التهرب من هذا السجن الصارم . لذلك يجب أن لا نتعجب اذا رأينا دعاة مذهب الرخاء يرتكبون الخطأ الذي يكافحونه على الدوام : إذ يقولون بالضبط أنه يجب أن لا نخلط بين الحاجات الحقيقية والحاجات التي يمكن الوفاء بها . اذا أنت لم تستطع بيع منتوجاتك فذلك لتقصيرك في جعل الحاجات الحقيقية قابلة للاستيفاء .

ولكن هذه المنتوجات غير المبيعة إنما تقدر كميتها - ولا نقول تحسب وتقاس - حسب الفائض الظاهر أي الفائض الزائد على الحاجات القابلة للاستيفاء . ولو أردنا أن نحكم بغير ذلك لوجب علينا أن نقوم بإعداد قائمة واسعة للحاجات الحقيقية ، أو على الأقل ، تلك التي نفرض أنها حقيقية ثم أن نعد قائمة أخرى كاملة للامكانات الفنية في ذلك الوقت . على أن المدافعين عن المذهب لا يسلكون أبداً هذه الطريق وهم بصفتهم يؤلفون الطليعة ربما كانوا على حق في ذلك . وهذا (هـ . موللر) مثلاً يقول : « ان أجور العمال الحالية لا تفي

إلا بـ $\frac{١}{١٠}$ ، بل بـ $\frac{١}{١٠٠}$ من الحاجات » . ربما كان من المفيد ، مع ذلك ، أن نعرف بالضبط هل النسبة هي $\frac{١}{١٠}$ أم $\frac{١}{١٠٠}$ ، لأن حل المشكلة قد يختلف كثيراً تبعاً لذلك . ولكن من الضروري هنا إستخدام ما يتجاوز القياس .

لا ضغط ولا شدة :

قلما يبين لنا أصحاب هذا المذهب كيف تجري العملية . وهم كلما فعلوا ذلك كانت النتيجة في غير صالحهم . إنهم لم يقولوا لنا : بتأثير أي دافع سوف يقدم الناس على العمل عندما نضمن لهم وسائل العيش في كل حال ؟

اذا ما تم توزيع الرخاء أي توزيع الخيرات المتوافرة ، حسب هذا المذهب ، فإن جميع المشاكل الاجتماعية سوف تنحل من نفسها . لن تكون هناك بعد ذلك منازعات طبقية ولا جرائم لأن كل واحد يحصل على حاجته ؛ إن البغاء سيزول من نفسه وكذلك ادمان الخمرة .

هذا التفاؤل مطابق لتفاؤل معظم « الطوبيات » . ان البشر يصبحون حسب هذا الرأي ، أخياراً عوضاً عن أن يفسدوا بالنزاع الداخلي . ومنذ اليوم الذي لا يبقى فيه ما يدفعهم إلى مكافحة بعضهم بعضاً ينتصر الخير والصلاح ويتحقق الانسجام التام .

ولكن بينما تعدنا الشيوعية بهذه الحالة في مرحلة بعيدة قليلاً أو كثيراً يعلن مذهب الرخاء أنها ممكنة في الحال . وبينما تفرض الشيوعية أنه لابد ، في بادىء الأمر ، من تحمل الحرمان والقيود الشديدة فإن مذهب الرخاء لاينبيء بشيء من ذلك استجابة منه لحاجة بشرية قاهرة : التهرب من الواقع . ينبغي أن لايعاني أحد الفاقة : فأصحاب الأجور ينالون مطاليبهم ، وأصحاب المعامل تضمن لهم الأسواق ، والمتقاعدون والمعوزون يعطى لهم بسخاء . ويقول أصحاب المذهب : اذا ما انحلت مشاكل الانتاج فلن يبقى سوى التوزيع .

هذا الأسلوب في التفكير ينسى عاملاً جوهرياً هو العامل البشري . إنه كثيراً ما تنقضي مدة جيل أو جيلين بين الوصول الى (اكتشاف) حيوي في المخبر وبين إقدام الفلاحين الأميين على تطبيقه عملياً . فالزمان هنا هو الذي يتوقف عليه كل شيء . .

الأسطورة تهم كل الناس :

يتبين من ذلك أن مثل هذا المذهب يسهل عليه أن يجد أتباعاً وبخاصة انصاراً محبذين . إن الاتباع الخالصين ، وهم أقلية ضئيلة دون ريب ، لانعثر عليهم بين الطبقة العاملة ، بل بين أرباب الفكر الذين يتألمون من أخطاء الرأسمالية واسرافها وتبديدها ولكنهم يخشون من جهة ثانية شدة الشيوعيين .

على أن هناك القليلين من الاشخاص الذين لايجد مذهب الرخاء صدى لديهم في لحظة من اللحظات . وليس هناك من رئيس مؤسسة أو صاحب أجرة لم يلح لفكره في لحظة عسيرة وميض أمل يبدو متلألئاً في منتهى النفق المظلم ؛ كما إنه ليس هناك من فكر يبلغ درجة من القوة والصلابة يستطيع معها أن يقاوم كل اغراء بالرفق والحنان . بل إنه من الصعب تجاه التناقضات الاقتصادية الصارخة وتجاه المحاولات الهدامة الوحشية أن ترفع الحواجز وتفتح الباب على مصراعيه لكبح كل شعور بالثورة ، وكل اندفاع لتحطيم نظام فاسد إلى هذا الحد .

وهذا هو السبب في أن الاسطورة لم تكافح أبداً بصورة علنية حتى من اولئك الذين يعتبرونها خطراً بالنظر إلى أوضاعهم الاجتماعية أو بالاستناد إلى معرفتهم . ولما كانت مقاومـــة التفاؤل السخي مستهجنة فإن مذهب الرخاء يجد دوماً صدى ملائماً ، أو على الاقل ، يقال عنه بأنه لا يخلو من بعض الافكار السليمة المعقولة . لذلك نرى الاقتراحات المؤيدة لتوزيع الرخاء ولو جزئياً تلاقي دوماً بعض الاستجابة ولا تصطدم حتى خارج البارلمان بالرفض الا من محاسب ضيق الفكر يثور مثل السيد (بورغون) [الطبيب الجاهـل في هزلية موليير « المريض بالوهم »] ضد الأسماء الضخمة من أمراض الاقتصاد . .

الحالة الفكرية لدى الأتباع :

إن أكثر الناس ، الذين تسكرهم الأسطورة سكراً خفيفاً ولبرهة قصيرة ، لايلبثون أن يكتسبوا مناعة ضدها . أما الاتباع المؤمنون فان موقفهم يتفق والقواعد المتعارفة : تأييد تام ، كرم بالغ ؛ ورغبة في الخير كلية .

يتألف موقف الفرد مما يحقق له اطمئنان الفكر وراحته . فهو يتوصل الى نتيجة قطعية وهي أن جميع الناس الآخرين مخطئون وأنه مع زملائه يملك نوعاً من السر المبين وأن كل ماعدا ذلك ليس سوى كلام فارغ . إنه لذلك يعيش سعيداً بعقيدته دون اضطراب أو قلق رغم تكرر مظاهر النزق منه تجاه الذين لايتبعونه . ولا يتجلى الحقد لديه ضد المعارضين الاشداء أو ضد غير المكترثين بل ضد « المارقين » الذين يعرفون تعاليم المذهب ولكنهم ينكرون منها مالا يروق لهم . أما تجاه الشيوعية فإن الموقف مازال يزداد حيرة وارتباكا . قبل عشرين سنة ، عند ولادة مذهب الرخاء ، لم يكن في المثال السوفياتي مايدعو الى الحرج والانزعاج لان ذلك الاقتصاد البدائي « لم يكن ليستطيع أن يوزع الا القلة والعوز ، لاالرخاء . » أما اليوم بعد أن اصبحت المقدرة الاقتصادية السوفياتية تقع بين مقدرة فرنسا وايطاليا وفي مستوى هولاندا تقريباً فلم تعد هذه الحجة صالحة . على أن المواطن السوفياتي ما زال بعيداً عن طمأنة حاجاته الى

السكنى والثياب بل حتى الى المواد الغذائية . ومن جهة أخرى لا يمكن في هذا النظام أن نشكو وجود « كساد سعيد مقصود ». لا شك في أن هناك أنواعاً أخرى من التبديد والتبذير (مثل البيروقراطية وغيرها) ولكن أي نظام يضمن لنا الاستخدام الكامل للقوى دون أي ضياع ؟ إن من خصائص الحضارات المعقدة كما هي الحال أيضاً مع الالآت ، السعي وراء النتيجة الايجابية ، وراء الانتاج أكثر من الحرص على منع كل خسارة . ومقدار التبديد في البكرة أقل بكثير مما هو عليه في المحرك الانفجاري .

ومهما يكن من أمر فإن أتباع المذهب الذين لا يجسرون على لوم المحايدين أو غير المكترثين يكتفون بالأسف على أن هؤلاء لا يريدون سماع دروسهم . وبما أن اولئك الاتباع يحرصون على صيانة الاسطورة ولا سيما صفة السخاء العالمي فيها فهم لا يستطيعون التفكير في تأسيس حزب سياسي . إنه ينبغي التأثير في مجموع الرأي العام ولذلك يقتضي من الوجهة الشكلية تحاشي الاصطدام بأي مقدسات . وإذا كان من المرغوب فيه مثلاً تأييد ازدياد « القوة الشرائية » فإنه يستحسن استخدام هذا التعبير الجذاب الذي يعجب الرأي العام كما ينبغي تجنب تعابير « الورق النقدي » أو « الالتجاء الى مصرف فرنسا » بسبب المخاوف التي تثيرها تلك المصطلحات ، رغم أن هذه المخاوف نفسها تتصف في الغالب بالمبالغة

وبالطابع الاسطوري

مفيدة أم مضرة ؟

إن السؤال عن مدى مطابقة الأسطورة للحقيقة أمر ثانوي ، بل ليس له أي معنى . إنما المهم فائدة الأسطورة أو نتائجها . وكم هناك من أخطاء ذات قوة عظيمة سامية ونظريات مبنية على الصخر إلا أنها عقيمة . وإذا كان مذهب الرخاء قد برهن في النهاية على ضرره في فرنسا على الأقل فذلك لأن أتباعه لم يعرفوا أن يختاروا بين الأسطورة المحضة – أي (الطوبى) في أحسن معانيها – والعمل المباشر .

ان (جاك دو بوان) الذي وصف المستقبل بتعابير مثيرة في الغالب لم ينقطع عن مضاعفة النصائح فيما يتعلق بالسياسة الحاضرة . انه يريد تجديد كل شيء دون ثورة ودون تغيير في وضع الاشخاص . وهو يرى أن الرأسمالية وسيلة صالحة يمكن إصلاحها دون أي مشقة ودون أي جهد غير الاسترسال مع الخيال . فمجرد تبديل بسيط في أنظمة مصرف فرنسا ثم توزيع الأوراق النقدية (دون ان تلفظ هاتين الكلمتين) يكفيان كأنهما عصا سحرية .

ليس هناك من مصلح أو ثائر بلغت به الجرأة الى هذا الحد .. كثيرة هي المحاولات الفكرية للتخلص من الرأسمالية دون الوقوع في شدائد الشيوعية حسبما كانت سائدة حتى اليوم . كذلك كثيرة

هي النظريات الاقتصادية التي تميل الى هذا الاتجاه نفسه . وبصرف النظر عن الاقتصادي الانكليزي (كينز) وعن نظريات الاستهلاك الناقص فإن هناك مفكرين كراماً يسعون الى تقديم مفهوم الحاجة على مفهوم الربح . وليس من شأننا هنا أن ننتقد هذه النظريات أو نصفها . ولكن يجب أن نعرف كيف نختـــار بين (توماس موردوس) وبين (كينز) .

إن هذا الغموض (في مذهب الرخاء) أدى إلى نتائج مؤسفة للغاية في الاقتصاد الفرنسي من غير ان يساعد على انتشار المذهب . وقد كان من الممكن أن تنجح الجبهة الشعبية ، كما سنرى ، لو لم تكن هناك مبالغة طائشة في تقدير الامكانات الفنية في ذلك الوقت .

إن أتباع (مالتوس) من المنتجين ، عوضاً عن التخلي عن آرائهم ، قد اشتدت نقمتهم على الفكرة القائلة إن الانتاج يمكن زيادته ، لأن ذلك يزيد في متاعبهم . ورد الفعل هذا ليس معقولاً ولكنه يحدث في الواقع . ولما كان التفاؤل الذي يتصف به مذهب الرخاء سلبياً الى حد بعيد فإنه لم يتوصل حتى الآن الى شيء آخر غير الاكثار من الأحقاد العقيمة دون ان يثير الاستياء الشديد الذي ينبثق عنه كل تقدم ...

الفصل السابع

تيارات الرأي العام الكبرى

في فرنسا بين الحربين

سنعدد بعض تيارات الرأي العـــام الكبرى التي ظهرت في فرنسا من سنة ١٩١٤ الى ١٩٣٩ ، ثم نصفها بكثير من الايجاز .

التعداد :

فيما يلي قائمة التيارات الأساسية ، التي كان من الممكن بالتأكيد اطالتها :

الفترة	الموضوع	مع الحكومة أم ضدها
١٩١٤ – ١٩١٨	الانتصار في الحرب	مع الحكومة بصورة فعالة
١٩١٤ – ١٩١٨	الالمان غير مخلصين (متوحشون)	» » » »
١٩١٨ – ١٩٢٦	المانيا سوف تدفع (تعويضات الحرب)	مع الحكومة » »
١٩٢٠ – ١٩٢٨	اعادة قيمة الفرنك	مع الحكومة
١٩٢٩ – ١٩٣٥	مكافحة الأزمة (الاقتصادية)	ضد الحكومة
١٩٣٤ – ١٩٣٦	خفض قيمة الفرنك	مع الحكومة بصورة سلبية
١٩٣٤ – ١٩٣٦	مكافحة التضخم (المالي)	ضد الحكومة
١٩٣٦ – ١٩٣٨	الجبهة الشعبية ؛ ٤٠ ساعة(أسبوع العمل)	مع الحكومة
١٩٣٨ – ١٩٣٩	المراسيم التشريعية	ضد الحكومة
١٩١٩ – ١٩٣٩	الدعوة الى السلام	مع الحكومة

الحرب سنة ١٩١٤ – ١٩١٨ :

كان الرأي العام يسير في الاتجاه الذي اتبعته الحكومة ، بالاضافـــة الى أن الحكومة كانت تعمل بقوة على توجيهه بواسطة المراقبة والدعاوة على أن الرأي العام يذهب الى أبعد مما تذهب اليه الحكومة التي تراودها الشكوك أحياناً في إمكان كسب الحرب والتي تنظر الى مسألة فظائع العدو بصورة أكثر مرضوعية .

إن الأوهام التي شاعت في تلك الحرب (مثل رصاص الالمان الذي لا ينطلق ؛ شطائر المربيات التي تستخدم لاصطياد الاسرى

والخ . .) لم يعد الفرنسيون في سنة ١٩٥٥ يقابلونها إلا بالابتسام ، ولكن يمكن أن نتساءل : ألم يكن السكر المعنوي ضرورياً إلى حد ما في سبيل النصر كما هي الحال أحياناً مع السكر الحقيقي بالنسبة إلى الهجوم أو المقاومة . في أحرج الساعات عند (ستالينغراد) كانت الافضلية في اجتياز نهر (الفولغا) تعطى بالدرجة الاولى إلى الذخائر الحربية وبالدرجة الثانية إلى شراب (الفودكا) ثم بالدرجة الثالثة إلى المواد الغذائية . لذلك يجب علينا أن نتخذ موقفاً أكثر تسامحاً وأن نقول إن حالتنا الحاضرة ربما أصبحت أسوأ بكثير مما هي عليه الآن لو أن آباءنا واجدادنا لم يضحوا فقط بأرواحهم ، بل أحياناً بعقولهم أيضاً في سبيل ضمان مستقبل أولادهم .

١٩١٩ - ١٩٣٦ ألمانيا سوف تدفع :

بذلت فرنسا جهداً عظيماً من سنة ١٩١٤ حتى سنة ١٩١٨ وضغطت أعصابها لتشتري النصر الذي كلفها ، مع ذلك ، غالياً جداً . لم تكن القضية قضية مال . فقد كان الجواب المنطقي على مثل هذا السؤال هو : « إن ألمانيا سوف تدفع . » وفي الواقع صبغ هذا الشعار الرأي العام وألهم السياسة خلال سنوات عديدة . فقد كان الجواب على كل شيء ، مثل كلمة « دون مهر » عند البخيل (الذي وصفه موليير) .

لاشك في أن الاسطورة كانت راسخة بصورة خاصة لدى

البيئات اليمينية ، التي كان يمكن أن تزداد خسائرها ، ولكن كان ينظر شزراً على وجه العموم الى كل من يعارض تلك الاسطورة . والاقتصاديون أو الماليون الذين حاولوا أن يوضحوا بعض النواحي الغامضة من الموضوع أو أن يبينوا الصعوبات المتصلة بقضية « تحويل العملات » سرعان ما كانوا يتهمون بأنهم انهزاميون أو أعداء فرنسا أو أصدقاء الالمان والخ .

لقد كان الايمان مسيطراً على العقل الى حد دفع الى القيام بأعمال غير معقولة ، وعلى الاخص الى رفض التعويضات عيناً . فكانت النتيجة تحمل أعباء ثقيلة باهظة ؛ لان التفاؤل السلبي أضعف الجهود المالية ، وفقد النقد كثيراً من قيمته وأخيراً انتهت قضية التعويضات نفسها بالفشل . . .

١٩١٩ - ١٩٢٨ أسطورة الفرنك « الاصلي » :

بعد الحرب العالمية الاولى وجدت فرنسا نفسها في حالة لم يسبق لها مثيل : كان نقدها يتأرجح ويفقد من قيمته ولكن دون ان ينهار كلياً . وقد تضافرت عوامل عديدة على خلق اسطورة « الفرنك (الاصلي) » التي كانت مشتركة بين الاكثرية العظمى من الفرنسيين وان ظهرت ، مثل الاسطورة السابقة ، بصورة خاصة في البيئات اليمينية المستندةالى مراجع حقوقية . والعوامل المؤثرة هي : العادة القديمة في استعمال العملة الذهبية ؛ تفسير اجمالي وخاطىء لبعض الأحداث

السابقة (مثل أحداث سنة ١٨٧٠ — ١٨٧١ — : وبصورة خاصة الرغبة الجامحة في نسيان الآلام والعودة إلى الحالة « كما كانت قبلاً »)

هذه العقيدة قد ولدت أغرب الأفكار لدى أعقل الأشخاص وأكثرهم حكمة . فكان يقال أن قيمة الفرنك كانت تهبط بفعل الاجانب . وقد عبرت مجلة « اليقظة الاقتصادية » في تاريخ ٢٢ آذار ١٩٢٤ عن الرأي العام بقولها : « إن الالمان يتابعون الحرب ضدنا بوسائل غير شريفة توحي الينـا بشعور الحقد الدنيء والحسد لديهم . » وكان أعضـاء الحكومة يشتركون في تصديق هـذه الاسطورة وبالأخص (بوانكاريه) ، ولكن دون الوقوع في المبالغات نفسها . على أن كراهية الاجانب في الحقل المالي كانت قد بلغت حداً أصبح من الضروري معـه استرضاء الرأي العام مرات عديدة بالاعلان عن « اعتقال مضارب اجنبي في البورصة » فيكون ضحيـــة ذلك مستخدم مسكين لا ذنب له في ضعف السياسة الفرنسية .

وفي سنة ١٩٢٦ كان (بوانكاريه) ، بعد عودته إلى الحكم يميل ميلاً قوياً إلى « رفع قيمـــة الفرنك » . ولكن الماليين والاقتصاديين الواقعيين انتصروا اخيراً على الحقوقيين والعقائديين ، فتم تثبيت قيمة الفرنك في سنة ١٩٢٨ .

١٩٢٩ — ١٩٣٥ : الازمة الاقتصادية الكبرى :

لم يكن هناك اتفاق في الرأي العام اثناء الأزمة الكبرى ، ولم تكن هناك فكرة لها السيادة دون غيرها . على أن فكرة تدخل الدولة اخذت تنتصر تدريجياً على موقف انصار المذهب الحر المؤمنين بعودة الامور آلياً الى مجاريها . وقد شاهد الناس إذ ذاك كيف برزت من جديد اسطورة تحديد الاسعار عن طريق السلطة . لا شك في ان مثل هذا التحديد قد ينجح عندما يكون اقل طموحاً وعندما ترافقه تدابير صالحة ولكن بالنسبة الى موضوع بحثنا كان الهدف الحيلولة دون هبوط بعض الاسعار مع عدم التعرض لقيمة العملة النقدية . وبما ان مجرد إصدار قانون لم يكن كافياً فإن سعر القمح أخذ يتدهور في الخفاء . ورغم اختلاف الفرنسيين إزاء هذا المرض الذي لم يكن معروفاً من قبل فقد كان الرأي السائد يقول : « ماذا تنتظر الحكومة حتى تقدم على العمل ؟ » إن كل طبيب يعرف هذه الحالة النفسية لدى المريض .

وهكذا كانت نتيجة الأزمة في جميع البلدان تحولاً سياسياً يتصف أحياناً بالعمق : ففي انكلترا حل المحافظون مكان العمال (سنة ١٩٣١) ؛ وفي الولايات المتحدة انتخب روزفلت (سنة ١٩٣٢) وعاد الديموقراطيين الى الحكم ؛ وفي المانيا تولى (هيتلر) الحكم (سنة ١٩٣٣) وفي فرنسا قامت الجبهة الشعبية (سنة ١٩٣٦) .

١٩٣٤ – ١٩٣٦ : تصفية التضخم أم تخفيض قيمة النقد :

إن الأزمة التي لم تخفّ وطأتها إلا بصورة بطيئة كانت قد أصبحت راسخة في فرنسا سنة ١٩٣٤ : فقد كانت الاسعار الفرنسية تزيد بمقدار (٢٠ – ٢٥ ٪) على الاسعار الاجنبية بسبب تخفيض قيمة العملات الأجنبية ؛ وكان هذا مما ينذر بتدهور أشد وطأة . وقد طرح (بول رينو) ، في خطاب مثير له ، مشكلة الاختيار بين : تصفية التضخم أو تخفيض قيمة النقد . ولما كان تنسيق الأسعار الفرنسية مع الاسعار العالمية أمراً محتوماً كان من الضروري أما تخفيض الاسعار مباشرة (أي تصفية التضخم) وأما الرجوع بالنقد الى مستوى الجنيه والدولار .

على أن الرأي العام لم يتبع هذا المنطق الحاسم : لأنه كان يعد تخفيض قيمة النقد عملية تتصاعد منها العفونة أي عملية كانت دوماً وما تزال عبارة عن سرقة . ولم يحدث أبداً أن طالب الرأي العام بمثل هذه العملية . وفي هذه المرة أيضاً لم يكن هناك مجال لقبول أي ملاحظة فنية . أما تصفية التضخم فإنها كانت تعتبر أكثر شراً . وقد تبيّن أن في تطبيقها أخطاراً كبيرة على الحكومة . إن تحديد الاسعار أو بالأحرى تخفيضها كان معناه التعرض الى نقمة التجار والمزارعين ، كما ان تنقيص الأجور وغيرها كان من شأنه أن يثير حركة عنيفة الى درجة تفوق التصور .

عبثاً قام المتفائلون يستشهدون بما حدث فعلاً من انخفاض في تكاليف المعيشة ومن ازدياد في القوة الشرائية نتيجة لذلك . جميع هذه الحجج لم تكن لتصمد أمام وهم القيمة الإسمية الذي برهن في تلك الفترة على تأثيره الخارق وأطاح بأكثر الحكومات رسوخاً . وقد كان موقف المحاربين القدماء واضحاً بصورة ساعدت على استشفاف تخفيض النقد في يقين شبيه باليقين الذي يستشف به حدوث المد .

وهكذا فإن الرأي العام الفرنسي (ولا سيما الرأي العام المحافظ) قد نسي ، تبعاً لعادته ، أن ينظر الى ما وراء الحدود . هل الأرض هي التي تدور حول الشمس أم بالعكس ؟ هل يجب أن يسير الفرنك في طريق الدولار أم على العكس ؟ هنا تجلى الغرور القومي وانكشفت أوهام بلد كان يعتقد أنه ما زال مركز العالم ودعامته .

في أحد المشاهد يلاحظ الممثل الهزلي (غروك) ، مقعداً صغيراً يبعد كثيراً عن (البيانو) الضخم ، فيبذل جهوداً تفوق الطاقة البشرية ليحرك (البيانو) ويقربه من المقعد ، تلك هي الطريقة التي اتبعها أنصار تصفية التضخم .

كان المعارضون ، وهم أقل شعوراً بالمسؤولية ، يقولون على لسان (ليون بلوم) : « انني لا أسمح بأن أحشر في هذا المأزق وأن أضطر إلى الاختيار ، فأنا لا أريد تصفية التضخم ولا تخفيض النقد . » مثل هذه الحجة ذات الحدين تعتبر من وسائل الدفاع

التقليدية لدى الرأي العام أو على الأقل لدى الرأي العـــام غير المسؤول . وهي في الغالب شبيهة بسياسة النعامة » .

لقد اختار البارلمان تصفية التضخم بدافع الواجب وفي الوقت نفسه بدافع الخوف من فتــــح الطريق للاصلاحات الاجتماعية أو للفوضى . فهو لم يدرك أن الرأي العام كان يمكن أن ينسى بسرعة عملية تخفيض النقد غير المؤلمة ولكنه كان لا بد أن ينقم على التخفيض الاسمي للدخل الذي يعتبر تعدياً على كرامة الأفراد أكثر منه على رفاهيتهم .

١٩٣٦ – ١٩٣٩ : من الازمة الى الحرب :

هذه الفترة المؤلمة ولكن المليئة بالعبر ستكون موضوع فصل خاص نرجو من القراء الرجوع اليه .

١٩١٩ – ١٩٣٩ : حركة السلام :

كان انخفاض نسبة المواليد لمدة طويلة قد فرض على فرنسا بين سنة ١٩١٤ و سنة ١٩١٨ مهمة تفوق ما لديها من وسائل . وهي قد قاومت مدة اربع سنوات معتمدة على أعصابها وأبنائها . ولكن بعد النصر بــدأ الوهن . وأصبح الخوف من الحرب هو الشعور السائد ؛ وبلغ تحريمها منتهى الشدة .

على أن حياة الشعوب لا تخلو من ظواهر غير منطقية تدعو الى الحيرة . وهكذا نلاحظ موقفين متناقضين جنباً الى جنب :

– سياسة خارجية هجومية ، قائمة على التحالف العسكري مع بولونيا وتشيكوسلوفاكيا (الطرف الذي يتعرض الى الهجوم له الحق في طلب المساعدة من الطرف الآخر) .

– سياسة داخلية دفاعية في الميدان العسكري والمعنوي (إذا جاز هذا التعبير) . وحركة سلام سلبية تقتصر على استنكار الحرب .

وعلى الرغم من أن (بول رينو) قد فضح هذا التناقض الغريب مرات عديدة مناشداً البارلمان أن يغير سياسته (التخلي عن الاحلاف) أو أن يبدل الجيش (باحداث الفرق المصفحة التي اقترحها ديغول) فإن المجلس الذي يعكس الرأي العام بدقة لم يتبعه . كان المنطق يحتم الاختيار بين حلين : إما إيجاد جيش تتطلبه السياسة المتبعة وإما اتباع سياسة جديدة تتلاءم مع تكوين الجيش الموجود . إلا أن الرأي العام يسهل عليه أكثر من الأفراد أن يجمع بين النقيضين .

إن فرنسا التي كانت تقلقها ذكرى الحرب ظلت تفكر دوماً في أن المانيا قد تهاجمها . وكان لا بد من الانتهاء الى أيلول ١٩٣٨ ، قبل مونيخ حتى تتجلى استحالة الاستمرار في هذه الحالة .

لم يقتصر الأمر على أن الجيش لم يكن يصدر سوى أوامر وتعليمات دفاعية ، مما يجعل هزيمته شبه مؤكدة ، بل كان من المستحيل أيضاً على البلاد أن تدرك أنها ، رغم حبها للسلم ، سوف تضطر هي نفسها الى إعلان الحرب بعد عشرين سنة من عام ١٩١٨ .

ولم يكن لعار (مونيخ) من فائدة سوى كسب مهلة بضعة أشهر . كانت فرنسا قد دخلت الحرب في سنة ١٩١٤ وكأنها سباح يغطس دفعة واحدة في الماء البارد فينتقل جسمه المتحرك في الحال الى المقاومة . أما عند دخولها الحرب سنة ١٩٣٩ فإنها كانت تشبه مستحماً ترتعد فرائصه فيخاطر ويقدم رجلا ثم يغوص حتى الركبة بدافع الواجب دون أي رد فعل ...



الفصل الثامن

مثال «دراماتيكي» :

(بلوم) ، (رينو) والجبهة الشعبية

الجبهة الشعبية :

بالنسبة الى المراقب المتمسك بالمباديء العقلية كانت الجبهة الشعبية قد أحرزت النصر الاقتصادي والسياسي في كانون الأول ١٩٣٦ - كانون الثاني ١٩٣٧ . فإن الحكومة التي كانت قد أقدمت في أيلول سنة ١٩٣٦ على تخفيض النقد ، أثارت بذلك انتعاشاً عاماً كالذي حدث خلال تلك الفترة في جميع البلدان ضمن الظروف ذاتها . وكان المراقب يرى أن مجرد الانتظار بضعة أشهر أخرى يكفي ليعود الانتاج الى ما كان عليه في سنة ١٩٢٨ ، قبل الأزمة . وكان ذلك سوف يعتبر في الوقت نفسه نصراً

سياسياً لم يسبق له مثيل .

على أن (ليون بلوم) لم يكن مطلعاً على الحالة الا بطريق الرأي العام أو بالأحرى بطريق الشائعات ، وهو قد استصغر شأن حركة الانتعاش الاقتصادي وبالغ في تقدير خطر البطالة ولذلك تشبث بما كان يجدر أن لا يفعله فأصر بعناد على تحديد مدة العمل بأربعين ساعة في الأسبوع ورفض كل تساهل . فكانت النتيجة أن أخذ الإنتاج في التقهقر منذ تلك اللحظة بعد أن كان يتزايد بسرعة وقد بلغ أوجه في كانون الثاني ١٩٣٧ .

واذا أردنا أن نتكلم بصراحة قلنا أن ذلك كان ، من وجهة نظر المراقب المحايد ، عبارة عن انتحار لم يسبق له مثيل .

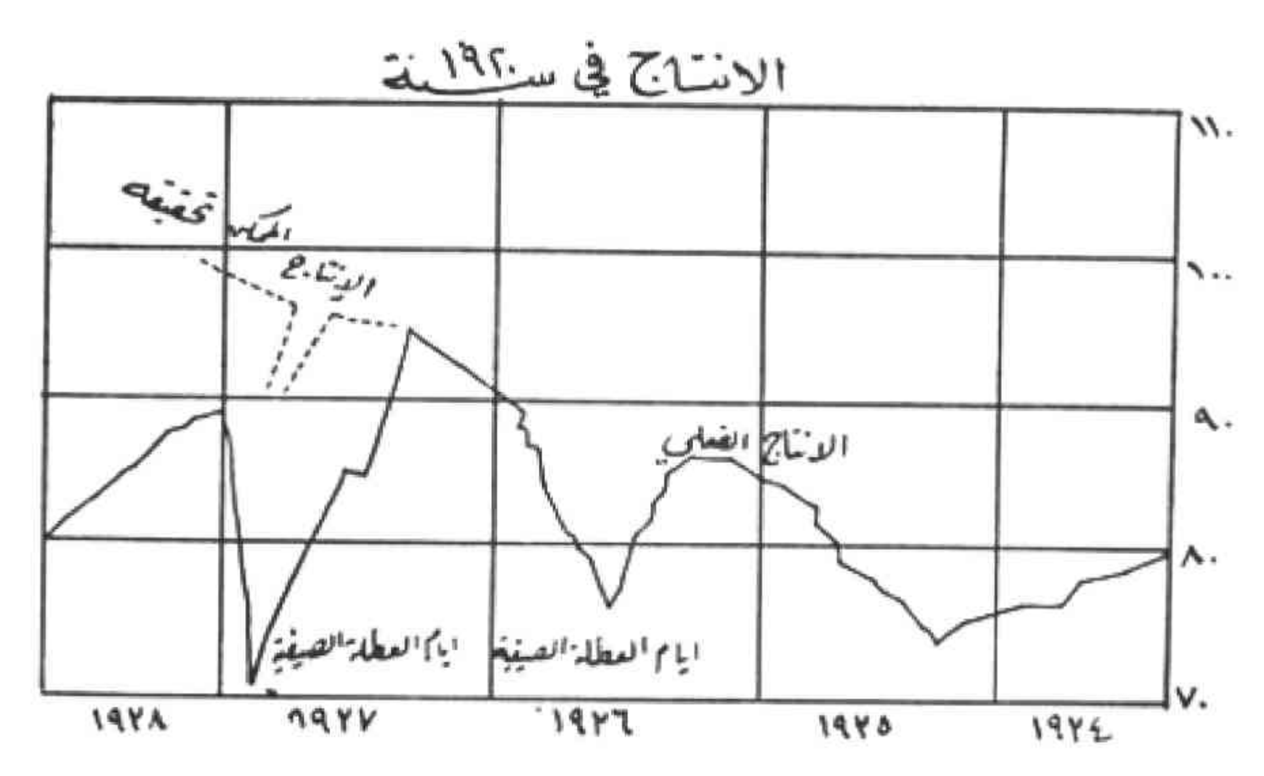
لاشك في أن الطبقة الرأسمالية (أو ما كان يسمى جدار المال) قد أسرعت ، سواء عفوياً أو بصورة منظمة ، مركزة، الى اقامة العراقيل في سبيل الحكومة . ولكن الحكومة كانت تعرف هذا الخصم حق المعرفة ورغم ذلك فقد فعلت كل شيء لتزويده بأفضل الأسلحة .

لم يكن الرأي العام قد لاحظ أي شيء تقريباً من هذه الوقائع . وكان الاقتصاديون لا يجسرون على ابرازها خوفاً من أن يوصفوا بأنهم خصوم للجبهة الشعبية . وكانت أحزاب اليمين الرأسمالية قد عرفت كيف تتلاءم مع أسبوع الأربعين ساعة الذي أدى الى

تناقص الانتاج (وبالتالي الى ارتفاع الأسعار) ، إلا انها كانت تنتقد ما رافق ذلك من زيادة في أجور ساعات العمل . أما أحزاب اليسار فلم يظهر منها سوى ردود فعل عاطفية . فإن الغموض كاد أن يكون كلياً في ذلك العهد لعدم وجود معهد لدراسة الحركة الاقتصادية .

ومن جهة أخرى فإن حكومة الجبهة الشعبية كانت ، حسب حكم المعاصرين الآني ، قد أحدثت في حزيران ١٩٣٦ ارتفاعاً زائداً في الأجور وفي القوة الشرائية للعمال . ولكن اذا رجعنا إلى الوقائع ولاحظنا أن زيادة الأجور قد تبعها بطبيعة الحال ارتفاع في الأسعار يتبين لنا ، مع الدهشة ، أن القوة الشرائية لأجرة الأسبوع كادت أن تبقى كما كانت : لأن التحسن الذي طرأ في مدة سنتين لم يزد على (٥٪) فقط وهذا يطابق ، على وجه التقريب ، الزيادة الطبيعية المعتادة منذ أجيال .

ان حكم الرأي العام على هذه الحوادث وبالأحرى تذكره إياها يختلفان إذن عن مجرى الوقائع نفسها اختلافاً كبيراً .



جدول بياني للانتاج الصناعي في فرنسا بين ١٩٣٤ و ١٩٣٨ (الأساس ١٠٠ في سنة ١٩٢٨) مع الاشارة إلى الانتاج الذي يمكن التنبؤ بـه في كانون الثاني سنة ١٩٣٧ .

المراسيم التشريعية في عهد (بول رينو) :

كانت حالة فرنسا حرجة جداً في تشرين الأول ١٩٣٨ : في الخارج كان قد تم توقيع اتفاق (مونيخ) ، ولكن لم يكن هناك أي شخص رزين يعتقد أنه قد أمكن بهذا الاستسلام تحقيق شيء غير المهلة . وفي الداخل اشتدت أزمة الصرف وازداد نزيف العملات الأجنبية (القطع) الذي كان مستمراً منذ ثلاث سنوات . وكان وزير المالية تراوده فكرة فرض الرقابة على الصرف وكانت هذه الرقابة محكوماً عليها في ذلك العهد بأن تظل ارتجاليـة وأن ينجم عنها لذلك أضرار بليغة . وكان ينبغي زيادة نفقـات التسلح

وفي الوقت نفسه الحيلولة دون تضخم النقد .

كانت الأكثرية السياسية لاتزال الى جانب الجبهة الشعبية ولكن كان من المؤكد أن الشيوعيين سوف يتخلون عنها . ولما لم يبق سوى بضعة أيام من المهلة التي يحق فيها للحكومة اصدار مراسيم تشريعية أقدم رئيس الوزراء (دالاديه) على استدعاء (بول رينو) الى وزارة المالية وكلفه إعداد المراسيم اللازمة لإصلاح الحالة .

كانت هذه المراسيم ، التي أعدت بكثير من الاستعجال ، ترمي من جهة الى استعادة ثقة رؤوس الأموال (العامل النفساني) ومن جهة ثانية الى زيادة الانتاج بتعديل قانون الأربعين ساعة (العامل الميكانيكي) .

اننا لاتناقش هنا المشكلة الاقتصادية وانما نبحث في حركة الرأي العام . ونستطيع أن نلاحظ دون تحزب أن المراسيم التشريعية قد أدت الى توحيد الرأي العام ضدها سواء بين طبقات الشعب أو في البرلمان أو ضمن الحكومة نفسها . وعندما اقترحها (بول رينو) في مجلس الوزراء قوبلت في اللحظة الاولى بالدهشة ثم بالثورة . وقد استنكرها الوزراء الفنيون (الأشغال العامة ، الزراعة ، الصناعة ، والتجارة ، العمل) وأشاروا الى أنها لاتفيد ، بل تضر . ولكن لم يكن هناك وقت للانتظار ، فأسرع (دالاديه) الى توقيع المراسيم .

كانت الصحف كلها تعارض المراسيم : الصحف اليسارية بعنف واليمينية بدرجة من الشدة على قدر مايسمح به الولاء السياسي .

ولم يكن للاستدلال العقلي هنا ما للدلالات والعلامات المعلنة من الخطورة وفي الواقع لم يكن أحد يؤمن بالنجاح .

فنرى السيد (ليون جوهو) يناقش في مدينـــة (نانت) : « سياسة الاصلاح المزعومـــة التي قيل أنها تقوم على أساس زيادة الإنتاج في حين أن الاصلاحات المالية والتدابير الضريبية لا يمكن أن تؤدي إلا الى زيادة تكاليف المعيشة ونقصان القوة الشرائيـة » . كان هذا الكلام في تشرين الثاني ١٩٣٨ أي في الفترة التي اندفع فيها سبعون مليون الماني الى زيادة انتاج الأسلحة بالعمل (٥٠) أو (٦٠) ساعة في الاسبوع .

وقد قام المحاربون القدماء أيضاً يحتجون بشدة ويرفضون كل تضحية . وفي ١٨ تشرين الثاني أذاع ممثل هؤلاء المحاربين السيد (هنري بيشو) هذا البيان العنيف : « ان التدابير الحكوميـة في الميدان الاقتصادي عبارة عن خديعة وسوف تحدث خيبـة أمل . ومشروع (دالاديه - رينو) المزعوم إنما شعاره غلاء المعيشـة الى أقصى حد . إنه ليس من الممكن انعاش الإقتصاد بإقامة العراقيل في طريقه منذ البداية ... »

وقال السيد (ليون بلوم) في ١١ تشرين الثاني : « إن تدابير

حازمة في الظاهر تتناول مدة العمل الشرعية أو زيادة ساعات العمل الإضافية بطريق التعاقد لا يمكن أن تحدث تأثيراً حقيقياً في الاقتصاد الفرنسي » .

وفي ١٥ تشرين الثاني كتب (مارسيل بيدو) في جريدة (لوبوبولير) : « ان خيبة الأمل عامة ، شاملة : في اليسار والوسط واليمين . ليس هناك سوى انتقادات شديدة ومعاتبات . كان السيد (بول رينو) قد دعا يوماً الى وحـــدة الكلمة بين الفرنسيين . وهاهو قد حقق هذه الوحدة – ولكن ضد خطته . »

وبالفعل كانت أحزاب اليمين التي تؤيد الحكومة سياسيــاً في موقف حرج جداً . فهي أيضاً قد خاب أملها إلى درجة كبيرة في المراسيم التشريعية . وقد كانت تطالب بتخفيض الضرائب أو تخفيض الأجور . إلا إنها بسبب رغبتها في دعم الحكومة من الوجهة السياسية كانت تخفي قلقها بعبارات الخضوع واليأس . هكذا كتبت جريدة (الطان) ، شبه الرسمية في ١٤ تشرين الثاني تحت عنوان « خطة الانعاش » تقول :

« لقد أقدمت الحكومة على تحمل مسؤولياتهـــا .. فالتدابير المتخذة لتحقيق المرونة في نظام العمل ، الذي يعتبر تطبيقه العقلي الجامد أحد أسباب التدهور الاقتصادي في فرنسا ، إنما انبثقت عن الرغبة في زيادة الانتاج . وهذه الخطوة يجب اعتبارها محاولة تقبل

التعديل والتكميل . وما ينبغي الاهتمام به اليوم في الدرجة الأولى ليس التفصيلات الجزئية وإنما المشروع في جملته والهدف المقصود منه والنتيجة الممكن بلوغها . وعلى الأمة أن تفهم أن هذه التدابير لا مسوغ لوجودها سوى المحاولة لوقف التدهور المخيف الذي انتهى بنا الى حافة الهاوية . أن كل فرد سيقبل بشجاعة العقاب الموقت المفروض على الجميع أملاً في مستقبل أفضل وسيتمنى النجاح لهذه التجربة الجديدة في سبيل الانعاش .... » فهل يمكن أن نتصور تأييداً أضعف من هذا في دعم الأصدقاء ؟!

وفي مجلة « رأس المال » يبدي السيد (جرمن – مارتين) أيضاً شكوكه ، قائلاً :

« إن المؤسسات التي ستعمل وتنتج لسوق حكم عليها بتحمل ازدياد تكاليف المعيشة ، هل هي بحاجة الى ساعات عمل أكثر ؟ »

أثناء اجتماع مجلس الوزراء في شهر شباط ١٩٣٩ دفع وزير العمل (بوماريه) الى (بول رينو) ورقة كتب عليها بضع كلمات مآلها : « إنتبه ، يا « بول رينو » فإن تأخير مشاريع الأشغال الكبرى سيكون سبباً في ازدياد عدد العاطلين عن العمل بعشرات الآلاف بعد بضعة أسابيع . »

هكذا كان تشخيص الحالة ينذر بالسوء باتفاق الآراء .

وإنه لرهان عظيم بين فئة قليلة من الرجال وبين الأمة كلها .

الانتعاش :

من تشرين الثاني ١٩٣٨ حتى حزيران ١٩٣٩ حدثت أهم حركة انتعاش بين الحربين في جميع الميادين المالية والنقدية والاقتصادية . إن سعر الدولار الذي كان حتى ذلك الوقت مستمراً في الصعود ظل ثابتاً يساوي تقريباً ٣٧,٧٥ فرنكاً . ولأول مرة منذ زمن طويل تقدم الفرنك على الجنيه الاسترليني . كان الأنتعاش الاقتصادي عاماً ، وقد ظهر أثره في جميع القطاعات المدنيـة والعسكرية : من تشرين الثاني ١٩٣٨ حتى حزيران ١٩٣٩ ارتفـع الانتاج الصناعي من ٨٧ إلى ١٠٠ والبناء من ٥٢ الى ٨٤ والتصدير من ٦٠ الى ٧٠ والـخ .

على أن أبرز نتيجة تسترعي الإعجاب هي ما يلي :

إن زيادة مدة العمل قد أدت إلى تناقص عدد العاطلين عن العمل كلياً وجزئياً . وقد هبط هذا العدد الى أدنى حد منذ أول الأزمة (فأصبح ٣٠٣,٠٠٠) ، كما أن نسبة العاطلين عن العمـل جزئياً (أي الذين يعملون أقل من أربعين ساعة) قد هبطت من ٢٠,٤٪ إلى ٩,٤٪ .

مرة أخرى نترك جانباً التعليل الفني ، وإن كان يستحق كل اهتمام . وسواء أكانت المراسيم التشريعيـة عادلة أم لا ، تقليدية أم متجددة فهناك حقيقة واقعية وهي : إن الرأي العام قد اعتبرها

غير مثمرة وغير صالحة لتحقيق الغاية المنشودة ، بينما أثبتت أقلية ضئيلة من « الخبراء الفنيين » ، بأنها على حق في مخالفتها للرأي العام .

أحكام الرأي العام اللاحقة :

إزاء مثل هذا الحكم القاطع من الطريف أن نشاهد ردود الفعل اللاحقة لدى الرأي العام .

هل أمكن أن يقتنع ؟ كلا .

أ) ظل مدة طويلة ينكر الانتعاش في سنة ١٩٣٩ .

ب) عندما أصبح الانتعاش حقيقة واضحة للغاية أخذ ينسبه الى التسلح ؟

ج) نسي التنبؤات التي كان أعلنها (منكراً امكان الانتعاش) .

د) مع مرور الزمن كادت أن تزول تماماً ذكرى الانتعاش ؛ الذي لم يعترف به مدة طويلة .

وقد التصق اسم (بول رينو) التصاقاً شديداً بالهزيمة العسكرية (التي لم يكن مسؤولاً عنها) ولذلك كان من الصعب أن يظل معتبراً في نظر الفرنسيين الرجل الذي تغلب على الأزمة الاقتصادية بعد فشل الكثير من الرجال والأحزاب . ولا نجد اليوم مؤلفاً واحداً يذكر الانتعاش الذي حصل في سنة ١٩٣٨ — ١٩٣٩ والذي ساعد كثيراً على زيادة انتاج الاسلحة وعلى توفير الكنوز لشراء الأسلحة اللازمة من الولايات المتحدة .

الوقائع عبارة عن غذاء ؛ ولكنها اذا كانت شديدة المرارة فإن الكائن العضوي يلفظها ويطرحها .

دفاع عن الرأي العام :

على أنه من الممكن الدفاع عن هذه الاخطاء التي تكاد تجمع عليها الآراء : « قد يقال أن انتعاش ١٩٣٨ – ١٩٣٩ لم تكن له من فائدة لأنه حدث خلافاً لتيار الرأي العام ؛ وإذا كان قد ساعد على انشاء بعض معامل الأسلحة فقد ثبت أن هذه كانت دون أي نفع ، لأنها لم تسهم في تقوية الروح المعنوية في البلاد . وكان هذا هو الامر الجوهري . إن مهزلة الحرب ١٩٣٩ – ١٩٤٠ لم تكن في جميع الجبهات ، ولا سيما الجبهة الاقتصادية الداخلية سوى فترة سخط وكفاح ضد الحرب » .

ولكن هذا الحكم ينتهي بنا الى نوعين من السياسة يعاكس أحدهما الآخر في الأساس . يقول المدافعون عن سياسة (مونيخ) : كان الفرنسيون في تلك الفترة من أنصار السلام المتطرفين . فكان لا بد من اطلاق يد ألمانيا في الشرق حتى تجد البلاد الوقت الكافي لتعود الى نفسها . أما اليساريون المتطرفون فيحكمون بشكل آخر : « إن رد فعل شعبي قوي فقط ، كما ظهر في « حركة المقاومة » فيما بعد ، كان يستطيع الوقوف في وجه ألمانيا . إنه لا يمكن أبداً تولي الحكم بحق ضد إرادة الشعب . ولم يكن العمال الفرنسيون

ليرفضوا تقديم مساعدتهم في سبيل انتفاضـــة قومية حقيقية ضد الفاشيستية .»

إننا لا نقصد إصدار حكم ولكننا نقرر أن البرهان على خطـأ رأي البلاد لتمسكها بمذهب (مالتوس) في موضوع الاقتصاد (هذا الخطأ الذي ما زال منتشراً حتى اليوم) لم تكن له بالفعل أي فائدة . كذلك زيادة انتاج الاسلحة ، فإنها لم تثمر شيئاً لأن الفرنسيين لم يكونوا قد صمموا على الاستفادة منها . إن التجربة وحدها لا تكفي لاقناع الرأي العام .

على اننا نعتقد أن الانتعاش الاقتصادي الذي حققه « الخبراء الفنيون » في سنة ١٩٣٨ — ١٩٣٩ كان ينبغي أن ترافقه حملة إعلام تتصف بمنتهى الصراحة ولكن دون أن تجرح شعور الرأي العـام الثائر . كذلك الحوادث التي وقعت من سنة ١٩٣٦ إلى سنة ١٩٣٨ والتي ما زالت مجهولة إلى حد كبير حتى اليوم ، يجب ان تشْرَح وتفسّر دون اندفاع مع الأهواء ودون هذا الارتياح الفظ الذي يظهره المحافظون عندما يعودون الى الحكم بعد أخطاء خصومهم السخية .

ان الشعب ، صاحب السيادة ، يجب على الأقل أن يطلع على ما يجري من أمور ..

(ليون بلوم) و (بول رينو) :

أن أحداً من أصدقاء (ليون بلوم) ، الذين يمجدون اليوم

ذكراه ، لا يعرف بالضبط التاريـخ الاقتصادي في السنوات ١٩٣٦ — ١٩٣٩ الذي أشرنا اليه باختصار آنفاً . فرئيس الجبهة الشعبية لم يعرف كيف يتبع باخلاص قاعدة (جوريس) الممتازة التي تقول : « اقصد المثل الأعلى وافهم الواقع ! » . إن هذا الرجل العظيم في مجمل حياته ، التي تتصف بمنتهى النزاهة والصفاء ، قد ظل محبباً الى النفس أكثر من عدد كبير من « المحافظين الأذكياء » ، ولكن اذا كان لابد من نظرة مثالية الى « التاريخ » فلا مفر من ملاحظـة تنوع الروايات التي تبعده عن كل روح علمية .

على العكس من (ليون بلوم) تعرضت سمعة (بول رينو) الى صدمة عنيفة بين جماهير الشعب . والذنب الذي اقترفه هو أنه كان على حق مرات عديدة تكاد تكون متعاقبة في فترة مابين الحربين سواء في السياسة الخارجية أو العسكرية أو الاقتصادية وذلك خلافاً لرأي الأكثرية وأحياناً خلافاً لشبه اجماع في الآراء .

للمحافظة على السمعة في الحاضر من الأفضل أن يخطيء المرء مع الشعب من أن يصيب ضد رأي المجموع .

إن الفترة الحاسمة بين ١٩٣٦ — ١٩٣٩ ، التي أدت الى أعظم كارثة في تاريـخ فرنسا ، تتضمن كثيراً من العبر التي مازال الفرنسيون يخشونها . ولابد من انقضاء جيل أو جيلين قبل أن

يصبح في الامكان اصدار حكم دون هوى أو مصلحة .

على اننا نستطيع منذ الآن أن نرى كيف أن الخطأ الفني الذي ارتكب في سنة ١٩٣٦ - ١٩٣٧ كان من المحتم أن يؤدي الى فشل حركة شعبية لم يسبق لها مثيل تقريباً ، وأن يفرض بالمقابل عودة « الخبراء الفنيين » وسيطرتهم .

ولنذهب الى أبعد من ذلك : اذا القينا نظرة اجمالية على الماضي قد يبدو لنا أن (بلوم) و (رينو) لم يكونا سوى شخصين قام كل منهما بتمثيل دور معين في المأساة . وتبعاً لمثل هذه النظرة من العبث أن نلوم هذا الممثل أو ذاك وان نترك المؤلف الذي لعب دور الخائن في غموض وابهام .

لقد تتابعت فصول المأساة دون هوادة لأن الفرنسيين لم تكن لديهم المعلومات الصحيحة والأخبار الدقيقة . وفي كل حين يتجلى لنا هذا الشرط الجوهري لقيام ديموقراطية دون مآسي .

فرانكلين روزفلت و « النظام الجديد » :

إن ذاكرة الرأي العام ليست أقل ضعفاً ونقصاً تجاه (فرانكلين روزفلت) . وبالنسبة إليه أيضاً لنحذر من اصدار حكم واحد على جميع أعماله ولنحاول أن نميز بين النتائج والنوايا . ان تدابيره الفنية الفاشلة لا تقلل فضله المعنوي في مكافحة النازية ، بل وفي مكافحة الرأسمالية الحرة المتفسخة . فالانتعاش الاقتصادي لم يكن يرجع سببه

في الولايات المتحدة الى « النظام الجديد » كما أنه في فرنسا لم يكن نتيجة لبرنامج الجبهة الشعبية . إن تخفيض قيمة النقد في آذار سنة ١٩٣٣ هو الذي أحدث انتعاشاً لم يسبق له مثيل . وتدخلات روزفلت بعد ذلك إنما أدت ، على العكس ، الى توقف الانتعاش ثم أحدثت اهتزازات عديدة تبعها التدهور الشديد سنة ١٩٣٨ . إن الحرب وحدها هي التي أعادت الاقتصاد الاميريكي الى الاستقرار والنشاط بعد أن كان يشكو من وجود ملايين عديدة من العاطلين عن العمل .

هذا التذكير بالوقائع ، التي يسهل التأكد من صحتها ، لا نقصد به ، كما سبق أن قلنا ، النيل من شأن (فرانكلين روزفلت) ولا أن نكافح مبدأ التدخل الاقتصادي . ان كل تعلم صعب ولا سيما تعلم الرجوع الى الوقائع .

إننا نشاهد الى أي حد يمكن أن يبتعد الرأي العام عن الوقائع ونشعر بوطأة المصائب التي قد تنجم عن هـذا الابتعاد بالنسبة الى الشعوب التي تخطيء كثيراً أو تخدع كذلك كثيراً .

الفصل التاسع

تيارات الرأي العام الكبرى في فرنسا منذ عام ١٩٣٩

نستطيع أن نميز في فرنسا ، منذ دخولها الحرب سنة ١٩٣٩ ، عدة فترات أو موضوعات لعب فيها الرأي العام دوراً هاماً :

الفترة	الموضوع	مع الحكومة أم ضدها
١٩٣٩ – ١٩٤٠	« الحرب الهازلة »	ضد الحكومة
١٩٤٠ – ١٩٤٤	الهدنة أو التعاون مع الالمان	مع الحكومة أولاً ثم ضدها
١٩٤٠ – ١٩٤٩	التقنين والاقتصاد الموجه	ضد الحكومة
١٩٤٥ –	الدولة الخصم	ضد الحكومة
١٩٤٥ –	الحروب الاستعمارية	موقف سلبي
١٩٤٠ –	زيادة النسل / المواليد/ ؛ الشباب ؛ مذهب (مالتوس)	موقف سلبي

الحرب الهازلة :

لقد رأينا في الفصل السابق كيف أن الرأي العام الفرنسي لم يتم اعداده اعداداً جيداً لحالة الحرب . أما (هيتلر) ، الذي ظل، في بادىء الأمر ، محافظاً على موقف الدفاع فقد استثمر هذا الوضع بمهارة . وكلمات (لامارسييز) العنيفة القائلة : « إنهم سيأتون حتى أحضانكم » لم تكن لتلعب دورها الآن ، كما في سنة ١٩١٤ .

لم يكن من الصعب على المراقب الهادىء أن يتبين أن الحالة كانت مفجعة : فقد كان كل واحد يفكر في الابتعاد بقدر الامكان عن كل ما يزعج في هذه المغامرة التي لم يكن يفهم شيئاً منها والتي كان يعتبرها غريبة عنه . وقد كان في استطاعة المراقبين النابهين أن يعلنوا منذ أواخر سنة ١٩٣٩ ، وبالاستناد الى دلائل كثيرة ، بأن الهزيمة مؤكدة .

في نهاية تلك السنة عرض فيلم من أفلام الدعاوة للجيش يصور حفلة عيد الميلاد في خنادق خط (ماجينو) . وإذا كانت الحفلة قد امتازت بكثرة أنواع الطعام والشراب فليس ذلك شراً في ذاته ولكن الأمر الخطير هو ان رئاسة أركان الجيش التي اعتنقت الأسطورة كانت تأمل في تحسين سمعتها لدى الشعب بأن تعلن للجميع أنها هي أيضاً « تتفهم الأمور ولا تنقصها المشاعر

الانسانيـة » . ولكن الحرب لا تعرف « المشاعر الانسانية » ، كما أثبتت لنا الحوادث .

في الداخل لم تقم أي تعبئة حقيقية . وكان رجـال الصناعة والتجارة يقاومون كل تدبير فيـــه شيء من الشدة والالزام ولا يجيبون دعوات الحكومة إلا بكلمـة السر المفعمة حكمة : « لنفكر في ما بعد الحرب ! » . وقد رفض وزير الزراعـة والتموين أن يبحث في أي تدبير للتقنين متفاخراً بأنه الوحيد في أوروبا الذي لا يحتاج إلى التقنين . ولو لم نخسر الحرب عسكرياً في مايس ـ حزيران ـ (١٩٤٠) لخسرناها بعد ذلك ببضعة أشهر في ميدان التغذية بسبب خطيئة الوزير .

لقد احتفظ الرأي العام بذكرى بعيدة جداً عن حقيقة هذه الحوادث والأوضاع . فهو ما زال ينسب الهزيمة إلى قادة الجيش ورجال الدولة وحدهم أولئك الذين كانوا يحكمون في حزيران ١٩٤٠ . وإذا تعمقنا في استجواب أحـد الأشخاص عن الموضوع فانه لا يتردد في اتهام خصومـــه السياسيين أو الطبقة الاجتماعية المعارضة أو ربما مجموع أعضاء البارلمان . ان لسان حال الجميع يقول : « لا ذنب لي ، قد قلت للقوم استقوا » .

ان هذا الموقف المطلق للرأي العام من سنة ١٩١٨ الى سنـة ١٩٤٠ مع نتائجه الحتمية قد اكتسب مع مرور الزمن وفقدان

الحماسة طابعاً مؤثراً ، مؤلماً .

الهـــدنة :

لقد كان بالامكان أثناء الاحتلال الالماني متابعة تطور الرأي العام عن كثب ومشاهدة انتقاله من الاستسلام ، الذي كاد أن يكون كلياً ، الى الانفجار في حركة التحرير .

في أيلول سنة ١٩٤٠ اطلعت حكومة (فيشي) عن طريق مراقبة البريد على التحول العميق في الرأي العام الذي كان حتى ذلك الوقت راضياً ومستكيناً . وكان العاملان الأساسيان في هذا الانقلاب هما : فرض التقنين على الأغذية ثم مقاومة الطيران البريطاني المظفرة .

كانت العواطف السائدة إذ ذاك هي : الوطنية وحب الحرية واحتقار العبودية . على أن هذه العواطف لم تكن لتستطيع الظهور تماماً إلا بالاستناد الى مختلف الوقائع المشخصة ولا سيما ما يتعلق منها بفقدان الاغذية والحاجات الاخرى ثم ضعف العدو المتزايد . أضف الى ذلك ان روح المقاومة التي دعت الى الشدة والضغط قد اضطرت السلطات الالمانية الى كشف القناع عن حقيقة الشعور الذي كانت تتظاهر به وبذلك أخذت الحركة تندفع من نفسها .

إن حماسة حركة التحرير ثم الدعاوة لمقاومة التسمم (الفكري) التي عقبت ذلك كان من نتيجتها ان نشأت حالة تتصف بشيء من البساطة . فقد قيل ان فرنسا لم تكن خلال أربع سنوات تتألف إلا من خونة ومقاومين

وان الأخيرين كانوا هم الاكثرية الساحقة . وهكذا انطبع في الذاكرة الفردية ، وأكثر من ذلك في الذاكرة الجماعية ، وضع مبسط وتطور مثالي لايمحو صورتها الا مرور الزمن . .

التقنين و « الاقتصاد الموجه » :

كان الرأي العام الفرنسي منذ فترة « الحرب الهازلة » قد أظهر معارضته للقيود التي تفرضها الحرب ولاسيما لتولي السلطات توزيع المواد الاستهلاكية . وقد كان لضعف الحكومات في سنة ١٩٣٩ – ١٩٤٠ نتيجة حسنة في آخر الأمر بعد الهزيمة : فان عدم رضى الشعب عن تدابير التقنين قد أدى الى بغضه للألمان كلياً . وكما لايصعب على العقيدة غير العقلية أن تجمع بين المتناقضات ، فكذلك كان الرأي العام يعتقد في وقت واحد أن كل المصائب ناشئة عن وجود المحتلين (كما يظهر من الشعار القائل : ان الالمان يسلبون كل شيء) . وأن هناك من جهة ثانية بضائع كافية لتحرير السوق . (الشعار السائد : كل شيء موجود) .

أما في الواقع فان المواد الغذائية التي حجزت بمختلف الأشكال لم تتجاوز في مجموعها مقدار واحد من عشرة مما كان متوافراً ؛ وقد كانت كمية الوحدات الحرورية المتوفرة لكل افرنسي لاتزيد على (٢,٤٠٠) [في حين أنها كانت تبلغ قبل الحرب ٣,٢٠٠] مع نقص كبير في الأغذية الحيوانية (بنسبة تتراوح بين ٤٠ ٪ و٥٠٪)

ولكن اسطورة الرخاء العامة والكراهية تجاه الاعداء كانتا تتضافران في إحداث التأثيرات المطلوبة .

في اواخر عهد الاحتلال كانت حكومة (فيشي) سائرة في طريق الانهيار . وقد قام حينئذ عملاء السوق السوداء أو بالأحرى التجار يتبجحون بأنهم كانوا بعملهم إنما يمارسون نوعا من المقاومة الوطنية . وقد سقطت هـــذه الحجة بعد التحرير ولكن الفوضى اشتدت على الرغم من ذلك . ومنذ الشهور الاولى بدأ تحطيم نظام التوزيع والمراقبة . وقد تجلت قوة تيار الرأي العام هنا ، كما في كثير من الظروف الأخرى ، في مدى التباين بين ضعف صوت الفئات التي كانت تدافع أو التي كان يجب عليها أن تدافع عن هذا النظام (مثل أصحاب الأجور والمتقاعدين والخ . .) وبين عنف اولئك الذين كانت لهم مصلحة في التحرر منه (مثل المزارعين والتجار وأرباب الصناعة) .

على الرغم من أن تقنين الأقوات على باخرة في موقف حرج يعتبر عملية انسانية في جوهرها وعلى الرغم من أن التوزيع حسب الحاجات يعد عملاً اجتماعياً الى أقصى حد بالنسبة إلى « التقنين بالمال » ، فإن النقابات لم تدافع إلا بكثير من الفتور عن ضرورة تخصيص (٣٠٠) غرام من اللحم في الاسبوع بينما طالبت بالسماح لأصحاب الدخل المحدود بدخول السوق السوداء . » وقد نسي الحزب الشيوعي بل حتى الحزب الاشتراكي أبسط المبادىء الاشتراكية بالنظر الى

قوة الرأي العام الذي لم تعمل السلطات العامة أي شيء في سبيل تنويره .

هذه الحركة خاصة بفرنسا . أما في البلاد الأخرى فقد خضع الرأي العام لضرورة التدابير الاستثنائية . وكان من نتيجه موقف الفرنسيين أن تدهور النقد الفرنسي الذي فقد (٩٠٪) من قيمته وأصبح بذلك الدليل المسبق على التفسخ الاجتماعي في السنوات التالية .

العدواة للدولة :

إن الرأي العام ، على الرغم من معارضته للتوجيه الحكومي لم يكن يعتنق المذهب الحر . ونرى أن الجماعات المهنية التي اعتادت أن تعارض أشد المعارضة كل الزام في الضرائب أو الأمور الأخرى لم تكن أقل اندفاعاً عن غيرها في المطالبة بالامتيازات والمساعدات .

يتجلى التناقض من جديد في أن الدولة تهاجم ويشنع بها من جهة ولكن من جهة أخرى تطلب منها المساعدة ويلتمس عطفها وعنايتها دوماً . إنه من النادر جداً أن يتحزب الرأي العام ، ولوبفتور ، مع الدولة ضد فئة اجتماعية معينة مهما تكن الامتيازات التي تستأثر بها هذه الفئة . ومن الغريب اننا شاهدنا زوال الحسد الاجتماعي وانقلاب سلوك الجماعات التقليدي الى عكسه ، إذا اتفق ان نالت إحدى الفئات بعض الفوائد فلم تكن الفئات الأخرى لترى في ذلك

أكثر من سبب اضافي لتطالب هي أيضاً بمثل هذه الفوائد . وقد تلاءمت الاشتراكية مع هــذا التيار من الرأي فتخلت عن فكرة « الاقتسام » الحقيرة واعتنقت مفهوماً أكثر نبلا يقـول « بالتسوية » عن طريق الارتفاع الى الأعلى . ولا شك في أن تعاليم (كينز) ومذهب الرخاء وكذلك الاحتلال الاجنبي قـد لعبت دورها جميعــاً في تكوين هذه الاسطورة . إلا ان هذا التعليل غير كاف ، لأن فرنسا وحدهـا هي التي سارت في هذه الطريق شوطاً بعيداً . ولما كان كل تيار للرأي العام لا بـد أن يجد داعية يستثمره فقد أمكن أن نشاهد المغامرة العجيبة التي قام بها (بوجاد) دون أن تجسر اي فئة على مهاجمة حركة مثل هذه تسير في « الاتجاه السائد » .

الحروب الاستعمارية :

لا يمكن تفسير موقف الفرنسيين تجاه الحرب في الهند الصينية وتجاه حوادث القمع الدموية في افريقيا الشمالية دون ملاحظـــة الاعتبارات السابقة .

استمرت الحرب في الهند الصينية من ١٩٤٧ حـتى ١٩٥٤ . وفي هذه الفترة جرت انتخابات نيابيـة . وكانت أكثرية الرأي العام تعارض الحرب . ففي تشرين الأول سنة ١٩٥٠ ، أي قبل الانتخابات ببضعة أشهر ، كان بين (١٠٠) شخص استجوبوا

(٢٤) يريدون المفاوضة مع حكومة (فيات منه) و (١٨) يريدون التخلي عن الهند الصينية و (٢٧) لم يعربوا عن رأيهم أما أنصار إعادة النظام الى الهند الصينية فلم يزد عددهم على (٢٧) وعلى الاجمال كان الرأي العام الفرنسي يميل الى « عدم الاهتمام بهذه المسألة التي لا تعنيه . . »

لقد كان معروفاً ، دون شك ، أن النفقات كانت باهظة . ولكن الاحتجاج لم يكن موجهاً الى السبب وإنما الى الضرائب التي ليست سوى نتيجة. ولم تظهر لدى الرأي العام انفعالات حقيقية وبالتالي لم تنته الحرب إلا عند ما أصبح عدد المتطوعين لا يكفي وصار من الضروري دعوة « المطلوبين » الى الجندية .

كذلك تجلت اللامبالاة بشكل غريب عند ما ثارت افريقيا الشمالية : لقد كان هناك حقاً أنصار متحمسون لكل من النظريتين المتعاكستين : القمع أو التفاهم . ولكن اكثر الفرنسيين ظلوا غير مكترثين بذلك ما دامت الضرائب لم يبحث في زيادتها وما دامت الدولة لم تدع أحداً الى الجندية .

زيادة النسل ؛ الشباب ؛ مذهب (مالتوس) :

هذا هو الموضوع الأساسي الذي سيطر على جميع الموضوعات الاخرى . ولا بد هنا من العودة قليلاً الى الوراء . بدأت الأسرة الفرنسية في تحديد عدد اولادها قبل سائر البلاد الاوروبية بمائة سنة .

وكنتيجة لهذا السبق وبسبب الاتساع الزائد لهذه الحركة تحملت فرنسا محناً شديدة في سنة ١٨٧٠ ثم في سنة ١٩١٤ ، بصرف النظر عن التدهور النسبي من الناحية الاقتصادية والثقافية .

كثيراً ما أثيرت المشكلة امام الرأي العام في فترة ما بين الحربين . وكانت الأكثرية مقتنعة بأن عقم النسل قد تجاوز الحد بالفعل وانه يضر بمصالح البلد . ان هذا الرأي لم ينبثق عن دراسة المشكلة الفرنسية بالاستناد الى المشاهدة والبرهان ، بل نشأ عند بعضهم عن عواطف حية ، وعند بعضهم الآخر عن شعور غامض بالندامة وتأنيب للضمير او حث به القدسية القديمة للخصب .

على أن هذه العواطف لم تبلغ درجة كافية من القوة حتى تدفع أصحابها الى الاقدام على التضحيات الضرورية (سواء أكانت مادية أم معنوية ، أم كانت راجعة الى حب الذات) . ما من أحد يدعو علناً الى عقم النسل ، ورجال السياسة يأسفون لهذا الأمر في جميع خطبهم ولكن جميع المؤسسات موجهة في الواقع ضد الطفل : سواء في ذلك نظام الضرائب أو السكن أو الأجور والخ ..) وفوق كل ذلك فان قدسية المال أقوى بكثير من قدسية الخصب .

في تموز سنة ١٩٣٩ ، عندما بدأت الحرب تقترب ، كان يبدو أن الظرف أقل ما يكون ملاءمة لمعالجة هذه المشكلة .

فقد كان من الواجب أن يستخدم المال للتسلح . واذا فرض أن للمال تأثيراً في زيادة المواليد (الأمر الذي ينكره الكثيرون) فكثرة الأطفال لن تكون سوى عبء اضافي أثناء الحرب التي كانت تقترب بخطوات سريعة . هكذا على الأقل كان منطق الرأي العام .

على الرغم من ذلك جرت في تموز سنة ١٩٣٩ بالذات حادثة خارقة للعادة . فقد اتخذت الحكومة تدابير لزيادة المواليد كانت تعتبر قبلًا غريبة و « غير معقولة » ونعني بذلك اصدار مجموعة قوانين الأسرة .

إن ممثلي البلاد اذ ذاك (دالاديه) و (بول رينو) ، اللذين أدركا أن فرنسا تسير في طريق التضحية قد أقدما على إعداد فرنسا الجديدة بدافع من انتفاضة الضمير واستجابة لشعور غامض بالندامة القومية .

لكن الرأي العام كان في واد آخر .

وفي حزيران سنة ١٩٤٠ ، أثناء الانهيار التام . ظهر برهان آخر على يقظة انتفاضة الضمير ، إذ أسست وزارة الأسرة . ورغم أن الحادث لم يكن في ذلك الوقت سوى رمز فهو يدل على أن بذوراً جديدة قد زرعت . ثم أخذ الرأي العام يشعر بالأمر وصارت جميع الحكومات المتعاقبة وجميع الأحزاب تعلن تأييدها

لهذه الحركة التي ترمي الى بعث الشباب . وقد احتـل الموضوع مكانه في نظام الضمان الاجتماعي . وبالفعل بدأت منذ سنة ١٩٤٦ فرنسا الجديدة تعود الى الحياة والى النمو . وبالتدريج اكتسبت فكرة زيادة النسل نوعاً من القدسية لم يجسر أتباع مذهب (مالتوس) النموذجيـــون (أي الاشتراكيون – الديموقراطيون) على مكافحتها علناً .

على الرغم من هذه الندامة الغامضة فان الشعور بالنهضة لم يصبح بعـــد شاملاً في سنة ١٩٥٦ . على العكس كان دعاة الانحطاط مازالوا يتظاهرون . وما كان الرأي العام ليجرأ على مهاجمة هذه الطبقات الشابة التي بدأت تؤلف عبئاً ، الا انه لم يكن أيضاً يشعر بأنهم سوف يستطيعون بعددهم وقوتهم تحطيم الاطـار الضيق لمذهب (مالتوس) الصلب الذي نجمت عنه أسوأ الكوارث .

واذا خرجنا من نطـاق دراسات السكان المحضة فان النظرة (المالتوسية) مازالت سائدة في جميـع الميادين من سكن ومدارس والخ . ومازال الرأي العام يؤمن أكثر ممـا في أي وقت مضى بالمبادىء الأساسية التالية :

– ان الآلة تحتل مكان البشر وتسبب العطالة عن العمل ؛

– ان عدد الوظائف والخدمات محدود ؛

– على الشيوخ أن يتركوا العمل في وقت مبكر ليفسحوا

المجال أمام الشباب ؛

– نظام الضرائب يؤدي الى نقص الانتاج ؛

– مساعدة الاعمال غير الرابحة ولا سيما التسلح تزيد من إمكان التوظيف ؛ والخ ...

لا شك أن بعض هذه المبادىء يتعلق بالمؤسسات وبعضها الآخر بأصحاب الأجور ولكن رد الفعل واحد والموقف متماثل الى أقصى حد .

إن هذه النظرة تنبثق قبل كل شيء عن موقف انفعالي : عن خوف الشخص من خطر فقدان رزقه ، بل من خطر فقدان الآخرين لرزقهم . ولما كان العمل الذي يزول يستوعي النظر و « يشاهد » أكثر من العمل الذي سيخلق فإن الفكر ، أو بتعبير أدق القلب ، لا يستمسك إلا بالأول . وإذا كانت العين لا تشاهد شيئاً والقلب يتألم من خطر الشر المؤكد فإن العقل لا يبقى له حينئذ مكان . وهذا هو السبب في أن دروس التجربة لم تفد شيئاً في ذلك الوقت . وبصورة خاصة فإن الرأي العام لا يحسب أي حساب للنتائج المقنعة ، نذكر منها مثال انكلترا حيث ازداد عدد الوظائف ثلاثة ملايين وظيفة منذ الحرب ، ثم نذكر مثالاً أقرب عهداً هو مثال آلمانيا ، حيث تم دمج عشرة ملايين من اللاجئين في دولاب العمل وحيث صار نقص الايدي العاملة أمراً محسوساً في مختلف المهن .

ان اعتناق مذهب (مالتوس) الاقتصادي يمثل لنا موقفاً خاصاً وحالة فكرية معينة امتدت الى كل شيء : كالاقتصاد ، بطبيعة الحال ، وتنظيم المدن والتعليم ، بل حتى اللغة . فقد تضاءلت روح الابتكار في اللغة الى درجة أصبح الناس معها يقبلون بسهولة الكلمات الاجنبية ويرفضون الكلمات الفرنسية الجديدة المشتقة حسب القواعد الصحيحة [1] .

لا يشعر الرأي العام شعوراً كافياً بهذه العيوب ولو وجد هذا الشعور لأمكن أن يبعث على الإصلاح .

إن موقف التقاعس والاستسلام ، الذي ترجع جذوره العميقة الى شيخوخة السكان ، يجب ان يجد اعتداله الطبيعي في تطعيمه بعنصر الشباب . والضغط الناشيء عن تدفق طبقات الشباب لا بد أن يضطرنا إلى تبني مفاهيم أقرب الى الواقع وبالوقت نفسه أكثر تعلقاً بالمثل الأعلى . ولكن مع مرور الزمن ربما بدا لمؤرخ المستقبل أنه قد كان هناك رد فعل شعوري وارادي بكل معنى الكلمة ساعد خلال فترة عشرين أو ثلاثين عاماً على قيام نهضة قومية من نوع لم يسبق له مثيل في التاريخ ..

---

(١) راجع في مجلة «السكان» العدد (٣) سنة ١٩٥٢ صفحة (٤٦٥ـ٤٧٦) البحث بعنوان « اللغة والسكان ، أحد مظاهر مذهب مالتوس » .

الفصل العاشر

«التكنوقراطية» أو سيطرة الفنيين

في ميادين سباق الخيل يميل كثيرون من المراهنين الى الاعتقاد أن هناك ما يشبه جمعية سرية تضم جميع المالكين والمدربين والفرسان (الجوكي) الذين يقررون كل مساء أي الأفراس يجب ان تربح في اليوم التالي . إن هؤلاء المراهنين يمثلون على وجه التقريب صورة المجتمع .

يتصف الرأي العام في النظام الديموقراطي دوماً بالحساسية والخوف من قوة خفية ، أو موهومة ؛ فهو يتحدث عن صاحب « المقام الرفيع ذي الرداء الأسود » أو عن « العصابة السرية » أو عن طبقة المثقفين أو « شركة رجال الفكر » والخ .. وكل زعم كالقول ان المشكلة هي « معرفة الشخص الذي يشد الخيوط » ، يقابل دوماً بالتصديق . وخلال الفترة الواقعة بين

١٩٣٩ – ١٩٤٥ نالت قصة مؤامرة « الحكم المزدوج » حظاً من الرواج لا يتناسب مع مقدار المعلومات الموثوقة التي نشرت عن الموضوع .

هذا الخوف الدائم ينقلب بسهولة الى عقيدة تختلف أشكالها باختلاف الزمن . والانسان الذي تتجه اليه نظرات الخوف اليوم هو الخبير الفني المسيطر .

سيطرة الفنيين :

يبدو أن اصطلاح « تكنو قرات – المسيطر الفني » يرجع الى عهد قريب . وقد كان خلال الازمة الكبرى حوالي ١٩٣٠–١٩٣٥ يطلق على العقائديين المتفائلين القريبين من أصحاب مذهب الرخاء الذين كانوا يذهبون الى أن الفن الصناعي (التكنيك) يكفي لتحقيق الانتقال الى مرحلة التوزيع . ثم ، بعد فترة من الكسوف بسبب الحرب ، عادت الكلمة الى اللغة بمعنى مختلف أو بالأحرى بمعان عديدة مختلفة ، لأن الاصطلاح لم يتحدد مدلوله بالضبط . وعلى كل حال فان التعبير في كل البلاد ، سواء الرأسمالية أو الشيوعية ، يدل بصورة عامة على الخبير الفني الذي يسيطر على السياسة ويفرض وجهات نظر مجردة وغير انسانية في الأغلب .

ولكن يمكن ، ضمن هذه النظرة الاجمالية ، تمييز حالات على درجة كبيرة من التباين :

فقد يدل هذا اللفظ على فئات من الأفراد أو على أشخاص معينين . حتى لقد وجهت تهمة « المسيطر الفني » بصورة خاصة الى (جان مونه) حوالي سنة ١٩٥٣ ، وجهها اليه خصوم « رابطة الدفاع الأوروبية » (عندما كان الرأي العام منقسماً حول هذا الموضوع) ، بل خصوم كل وحدة اوروبية . وفي مناسبات أخرى يبدو التعبير أكثر غموضاً ويكتسب طابعاً سحرياً يساعده كثيراً على نيل الحظوة عند الناس وعندئذ يلتقي بالرأي العام في اعتقاده الدائم ان هناك قوة خفية .

الرجل المالي :

اذا لم يكن اصطلاح « الخبير الفني المسيطر » معروفاً قبل الحرب بالمعنى الحالي فان الموضوع كان في الحقيقة موجوداً . لقد كان يمثله ، قبل اختراع هذا الاسم ، الخبير المالي أو الاخصائي في شؤون الموازنة الذي كان « بحجة المحافظة على توازن الحسابات طبقاً للمفاهيم البالية والتفكير الضيق يقف حجر عثرة في سبيل المشاريع الانشائية والمفيدة» متمتعاً بصلاحية لا مناص للسلطات السياسية من الانحناء أمامها . وكان الرأي العام على الرغم من قوته لا يستطيع حينئذ أن يعمل شيئاً .

كان كبار الموظفين الماليين قبيل الحرب يطمحون بصراحة إلى السلطة التي كانوا بالفعل قد حصلوا على جزء منها . وكانت

هذه السلطة تتضخم آلياً كلما ساءت الأوضاع المالية ، بينما تتضاءل في حالة العكس ؛ والخلاصة فقد كان الرأي العام والبارلمان يخضعان للنير الذي أعداه لنفسيهما بضغطهما المستمر للشؤون المالية العامة في حقلي الواردات والنفقات .

ان الخبير المالي قد اتسعت اليوم آفاقه ونظرته ، وأخذ يتجه الى مفهوم اقتصادي . الا ان سمعته كمسيطر فني مازالت رغم ذلك قائمة . وعدا ذلك فان هذه السمعة قد انتقلت الى موظفين آخرين وصارت تشمل العاملين منهم في حقول الاقتصاد العام والتخطيط والانتاج وغير ذلك . فهؤلاء هم الذين يوصفون بأنهم غير انسانيين نظريين ، مجردين والخ .. ، لأنهم يقفون في وجه المشاريع التي يدافع عنها أصحاب المصالح الخاصة .

الدواوين – العراقيل :

من تقاليد المنتجين والعاملين في الاقتصاد الخاص أن يعارضوا دواوين الحكومة . واذا رأينا هذه المعارضة أكثر شدة وحقداً من المعارضة التي يبديها الجنود المحاربون تجاه الأركان الحربية فذلك لأن دواوين الحكومة الجامدة ، البطيئة ، الدنيقة تعرقل المبادرة المبدعـــة .

ان « البيروقراطية » التقليدية تؤلف عائقـاً مانعاً ، لأنها تنمي روح اللامسؤولية . فالوضع الحاضر سواء أكان مرضياً أم

لم يكن ، يظل قائماً كما هو ويبقى التوازن مضموناً سواء كان ناجحاً أم لم يكن ، لأنه مامن أحد يستطيع أن يجد المخل الذي يطلق حركة الآلة . وهذه « البيروقراطية » تهدد كل أنظمة الحكم . ومؤرخ الغد ، عند ما يلتفت الى الماضي ويلقي نظرة فلسفية عليه ، قد يميل الى الاعتقاد أن مجتمعات القرن العشرين كانت تخشى الى حد كبير سرعة التحول ، التي تهددها بالتفكك ، مما جعلها تسعى الى حفظ سلامتها بوساطة هذا النظام الذي لا يجوز الخروج عليه . وبهذا المعنى تكون « البيروقراطية » قد خلقت عن قصد وارادة .

الدواوين – المحركات :

على أن تطوراً آخر قد ظهر في فرنسا منذ عشرين سنة تقريباً . ذلك أن دوائر المالية والاقتصاد ، وعلى وجه العموم ، جميع الذين لا يتأثرون مباشرة بالمصالح الخاصة كانوا بطبيعة الحال يلتزمون عن رضى جانب المصلحة العامة وبالتالي كانوا يعارضون بعض المصالح الخاصة .

يتصف التقدم في ذاته بالقساوة ، إذ أنه يحطم أفراداً ويرغمهم على تغيير عاداتهم وفعالياتهم . والاشخاص الذين تحتم عليهم وظائفهم تأييد هذا التقدم لا بد أن يصيبهم شيء من الكراهية الموجهة الى فكرة التقدم . فالرأي العام يتهمهم بأنهم لا يدركون الحياة

الواقعية . وهذا صحيح في أغلب الحالات . ان الحساسية المفرطة قد تنتهي الى ترجّح تام ؛ والطبيب الذي لا يستطيع تحمل آلام الآخرين يتعذر عليه ممارسة مهنته . فمن الضروري للطبيب ، كما هو الأمر بالنسبة الى المدافع عن الصالح العام ، أن يجعل هذه الرغبة في الأفضل متفقة مع الشعور الانساني الذي من شأنه أن ييسر ما يتمناه من التطور الملائم .

ليست الفئة التقدمية من الرأي العام هي التي تخشى في هذه المرة « الفنيين المسيطرين » ؛ بل الفئة المحافظة التي ترى أن مصالحها وامتيازاتها أصبحت مهددة .

عندما يكون أصحاب المصالح الخاصة أقوياء فإن معارضتهم تزداد شدة وخطورة ضد اولئك الذين يطالبون بتدابير تقدمية أو يحبذون مجرد مسايرة التقدم بالغاء الامتيازات دون أن يكون هناك مسوغ اقتصادي .

كذلك تحدث اصطدامات مماثلة في ميدان التعليم ، حيث يحتل المحافظون مراكز لها جذور عميقة جداً . ومن غرائب التناقضات أن دواوين الحكومة هي التي تقوم في هذه المرة بدور المحركات بينما تسعى المبادرة الخاصة إلى الممانعة والعرقلة .

مازالت الدوائر الحكومية تستخدم سلطتها بالدرجة الاولى في الظروف الحرجة ، كما كان الأمر قبل الحرب . وهنا أيضاً نرى خصوم

هذا الانحراف السياسي (أي مختلف الجماعات التي تتولى الضغط للمحافظة على مراكزها أو امتيازاتها) لايدركون أن تأثيرهم الخاص في سلطة الحكومة يؤدي حتماً الى رد فعل يحفظ التوازن .

هناك أيضاً بالإضافة الى هذه الخصومة تجاه الموظفين الماليين أو الاقتصاديين ، اعتبارات طبقية أو اجتماعية . فإنه عندما يتخرج هؤلاء الموظفون من المدرسة ذاتها تنشأ بينهم ألفة وصداقة فيشعرون بالتضامن وتجمع بينهم في الوقت نفسه حالة فكرية مشتركة . وهكذا يبتعدون عن بقية السكان وتزداد كراهية الشعب لهم شدة .

حكومة الفنيين :

هناك رأي قديم ، محافظ (لم يعد يؤبه له كثيراً بعد أن ارتكبت الحكومات المحافظة أخطاء عديدة) يحبذ تأليف الحكومة من « الفنيين » : بحيث يتولىّ أحد رجال السلاح البحري وزارة البحرية وأحد المهندسين وزارة الأشغال العامة ، واحد الخبراء المصرفيين وزارة المالية والخ ... وخطأ هذا الرأي ظاهر . فالفنيون ينبغي أن يرشدوا السياسة ويوضحوا لها الأمور ولكن ليس عليهم أن يتولوا توجيهها . إنه حقاً من حسن الحظ أن تكون لدى رجل سياسي معلومات فنية ولكن هذه المعلومات وحدها لا يمكن أن تكفي لتحديد ما يختاره .

لا شك أننا نلاحظ في ميادين عديدة أعمال تبذير وتبديد خطيرة

كان من الممكن تجنبها بسهولة لو اتخذت التدابير الفنيــة اللازمة ؛ إلا ان ذلك يتوقف بالضبط على وجود سلطة سياسية . إن الفني الذي لا يفهمه الرأي العام لا يستطيع فرض وجهة نظره إلا بالقوة المحضة ، وهـــذا ما يؤدي الى الدكتاتورية . وبالمقابل يستطيع الدكتاتور بسهولة تحسين الحالة الاقتصادية وبالأحرى الحـالة العسكرية التي دهورها الضعف في إحدى الديموقراطيات ، ولكن هذه النقاهة لا تدوم أكثر من سنة أو سنتين . وعندما يقتضي الأمر الانتقال إلى الإنشاء الحقيقي فإن فن الترميم لا يكفي .

أين ينتهي الفن ؟ :

إن الحـدود بين الفن والسياســة لم ترسم بشكل واضح كل الوضوح . فبعض الفنون قد بلغت حداً من الكمال يسمح لها بأن تحافظ على سلطتها الموضعية (مثل فن الطب) . على أن السياسـة تحاول دوماً حصر هذه السلطة ضمن نطاق ضيق . فالطبيب يقرر كيفية معالجة هذا المرض أو ذاك ولكن البارلمان هو الذي يقترع على قوانين الضمان الاجتماعي وعلى الاعتمادات المالية لانشاء المستشفيات ، بل على نظام الهيئة الطبية .

وقد اشتهرت الخلافات التي تحدث في أوقات الحرب بين السلطة السياسية والسلطة العسكرية . وهنا أيضاً ينحاز الرأي العام المحافظ الى جانب الفن وبالتحديد الى جانب الأركان الحربية .

على الرغم من أن الاختراعات المتنوعـــة ولا سيا أساليب القياس تزيد ميدان الفن المحض اتساعاً لايقبل الاعتراض والمراجعة، فسوف تبقى هناك دوماً مهمة شاقة هي جمع هذه الفنون المختلفة بوساطة مايشبه القاسم المشترك وهذا هو عمل السياسة . وفي الواقع فإن الفن لن يبلغ أبداً درجة من الدقة يستطيع معها أن يحدد ، دون أي التباس ، مختلف الأعمال التي يجب القيام بها للوصول إلى هدف معين (مثل رفع مستوى المعيشة) . وليس هـذا فقط ، بل أضف إلى ذلك أيضاً أن المجتمع يسعى دوماً الى أهداف مختلفة يتناقض بعضها مع بعض وتتطلب التحكيم الذي هو أمر سياسي في جوهره .

مديرو الاعمال :

لما كانت كلمـــة « تكنو قراط » (اي المسيطر الفني) لم يستقر معناها بعد فلا بد لنا من استعراض المفاهيم المختلفة :

يذهب (بورنهام) وغيره الى اننا اخـذنا ننتقل (سواء في العالم الشيوعي أو الرأسمالي) الى عصر مديري الاعمال الكبار . فمن الواضح جداً ان سلطة رؤساء المؤسسات قد اتسعت حتى فيما وراء ميدان عملهم ، ولكن الرأي العـــام في فرنسا على الاقل لا يبدي كثيراً من الانفعال في هذا الموضوع . ولعله قد اعتـاد ان يسمع الناس يتحدثون كثيراً منذ مدة عصر عن ارباب مصانع

الحديد والصلب حتى لم يعد يكترث بالموضوع . ومن جهة أخرى فان العمال الذين يهتمون قبل كل شيء بمسألة توزيع الدخل ضمن المؤسسات اصبحوا لا يفرقون منذ بدأ التأميم ، بين رب العمل الخاص ، او رب العمل العام .

اتحادات الشركات :

إن تعبير « تروستات » (اي اتحاد الشركات) الشائع يشير إلى ان الناس يتوجسون خوفاً من وجود سلطات خفية مبهمة . على أن صفة الابهام هذه بالذات هي التي تخفف من حدة الموقف .

ينظر الرأي العام إلى « إتحادات الشركات » على أنها العدو اطلاقاً ، مثلما كان ينظر في زمن الحرب الى « التاجر » . الا ان هذا الاستنكار يتحاشى تعيين أشخاص بعينهم ، إذ إن أي تعيين أو تحديد لابد أن يخفف من الشعور بالخوف فينقلب الشياطين حينئذ الى بشر ويتجه النقاش إلى الاتصاف بالصفة الفنية ، لأن هناك دوماً معارضين حسني الاطلاع يأتون باعتراضات دقيقة مستندة الى وقائع لا يستطيع الرأي العام الخائف أو المعادي مراقبتها .

وبالاجمال يبدو أن الرأي العام يحتاج حقاً الى أن يصب لعنته على أي مصدر سحري للشر حتى يستطيع أن يشعر بعد ذلك براحة الفكر . إن الشر يتضاءل الى النصف عندما يشار الى مصدره بلفظ دقيق يكفي لتوجيه اللعنة اليه ، ولكن في الوقت نفسه يجب

أن يكون ذا موضوع مبهم إلى درجة تكفي للحيلولة دون القيام بأبحاث دقيقة . اذا ماعرف مكان الشيطان فإن الفكر يصبح في اطمئنان .

إننا مازلنا بعيدين عن الانتهاء من السحر . فالأشكال والأسماء تتغير ولكن الحوافز النفسية تبقى هي ذاتها ...



الفصل الحادي عشر

التأثير في الرأي العام : الدعاوة

للرأي العام سلطان عظيم . لذلك تبذل جهود كبيرة لتحويره في اتجاه معين . واهتمام الرأي العام قد يشمل المسائل الاقتصادية أو الدينية أو السياسية والخ . . ولا نستطيع أن نلقي هنا سوى نظرة قصيرة على أساليب الدعاوة .

وسائل التأثير :

اذا كان الأمر يتعلق بالرأي ، بمعناه الحقيقي ، فيبدو ان الوسيلة النموذجيـــة للوصول الى أهدافه هي : الإعلام والإعلان والتعليم . ويمكن أن يكون الاعلام حيادياً ، موضوعياً لاهدف له سوى الارتقاع بالفكر عن طريق تعليمه . ولكنه قد يكون أيضاً متعصباً ، مغرضاً يغربل الوقائع ولا يحتفظ الا ببعضهـــا .

مثل هذا التشويه إنما يجري في الغالب لحمل الآخرين على اتخاذ موقف معين .

يتمم الاعلام الجزئي والمتعصب في أكثر الحالات بعمل انفعالي . فالهدف هو إثارة العواطف التي تملي علينا الموقف المنشود . في هذه الحالة يستصغر شأن الفرد ولا يؤبه له ؛ فيبذل الداعية كل جهده لئلا يخاطب عقله وشعوره وإنما يسعى على العكس الى أن يخلق فيه « ردود فعل شرطية » . وسنرى ذلك في نوعين نموذجيين من أنواع التأثير في الرأي العام : الاعلانات التجارية والدعاوة السياسية .

الاعلان التجاري :

كان الاعلان التجاري في بادىء الامر يهدف الى الاعلام قبل كل شيء . لقد كان الغرض منه نشر الاخبار التجارية واعلانها .

كتب (أميل دو جيراردن) [١] في الصحف يقول : « يجب أن يكون الاعلان صريحاً ، موجزاً وبسيطاً . اذا فهم الاعلان التجاري على هذا الوجه اقتصر فيه على القول أن بضاعة ما تباع في الشارع الفلاني ذي الرقم الفلاني بسعر كذا .. »

وهذا يعني احترام الجمهور والمحافظة في الوقت نفسه على المعنى الاشتقاقي لكلمة « اعلان » .

---

(١) ناشر وصحافي افرنسي خفض سعر الصحف وزاد من انتشارها (١٨٠٦ - ١٨٨١) .

لنفرض مثلًا أن أحد التجار قام بالاعلان حسب المعنى الدقيق للكلمة عن آلة غسيل . فمن الواجب عليه أن يشير في بيانه مثلًا الى وزن الآلة وحجمها أو سعتها موضحاً ذلك بالأرقام ومضيفاً إليه قائمة بالقطع المختلفة التي تتألف منها الآلة والمواد التي صنعت منها هذه القطع (فولاذ من هذا النوع أو ذاك والخ) مع ذكر وزن الغسيل الذي تستطيع الآلة غسله والزمن الذي تحتاج اليه في ذلك ودرجة الحرارة التي يتعرض لها الغسيل وحالته عند خروجه من الآلة (مبلولاً أم ناشفاً) ثم سعر الآلة وطريقة الدفع ومدة الكفالة وكيفية استخدام الآلة والخ .

على ان الإعلان التجاري قد حاد تدريجياً عن هذه الموضوعية الدقيقة والجافة قليلًا . أنه أصبح يكثر من المدح ويستعمل تعابير مبهمة مثل صيغة « أفضل زيوت المائدة » . ثم في مرحلة جديدة أخذ المعلن يسعى الى تعطيل تفكير الشخص المقصود والى تكوين « ردود فعل شرطية » لديه . وفي الواقع ان أساتذة فن الإعلان أنفسهم يستشهدون بكلب (بافلوف)[1] ويعلموننا كيف « نجعل

---

(١) ي . ب . بافلوف (I . P . Pavlov) (١٨٤٩ ـ ١٩٣٦) عالم فيزيولوجي روسي نال جائزة (نوبل) . اشتهر بنظريته عن « الفعل المنعكس الشرطي » وقد وضعها بعد تجاربه على الكلاب التي يسيل لعابها اذا رأت الطعام وهي جائعة ، فأخذ يقرع لها جرساً كلما قدم لها الطعام حتى أصبحت بعد مدة من الزمن يسيل لعابها لمجرد سماع الجرس دون أن ترى الطعام . (المترجم)

لعاب الشاري يسيل » . إنه ينبغي اللجوء إلى الايحاء والجبر . يجب على الشخص أن يشتري البضاعة التي هي موضوع البحث رغماً عنه تقريباً .

هكذا كان الإعلان في الحالة الأولى يعلم الفرد ويزيد اطلاعه ويسمو بفكره بينما هو في الحالة الثانية يحتقره ويحط من شأنه .

الدعاوة المهنية ، جماعات الضغط : « كتل الدهاليز » :

يقتصر الإعلان التجاري في الغالب على نوع معين من البضاعة أو على منطقة معينة من مناطق السياحة والخ . وقد يتفق المنتجون أحياناً على إطراء انتاج معين (الإعلان عن السكر أو الجلد والخ ..) ولكن يجب أن لانخلط بين هذه الطريقة في الإعلان وبين الدعاوة المهنية . فإن هذه الدعاوة لاتوجه إلى « عميل » عرضي ، بل إلى الرأي العام ، إلى الناخب وإلى البارلمان . والغاية من تكوين مثل هذه الرابطة المهنية هي تعديل التشريع لمصلحتها أو الدفاع عن امتيازات مكتسبة سابقاً .

هذا العمل المهني قد يتقارب مع الدعاوة السياسية . فمحاولة نقابات العمال الحصول على تشريع اجتماعي أفضل أو محاولة نقابات أرباب العمل تثبيت مراكزهم تتصلان مباشرة بالدعاوة السياسية .

ان جميع الكتل المهنية تسعى إلى التأثير قليلاً أو كثيراً في الرأي العام عن طريق الصحف الناطقة باسمها أو عن طريق المقالات

التي تتوصل الى نشرها في الصحف الأخبارية . على أن هناك أنواعاً من التأثير أصبحت قويةبوجه خاص خلال السنوات الأخيرة . وفي الفصل التالي درستُ على حدة محاولتين أساسيتين تتعلقان بالخمور وبالطرق .

ان الجماعة التي تؤثر في الرأي العام تسمى « جماعة الضغط » . وهـذا التعبير لا ينطبق على الكتل المهنية وحدها ، ولا يتضمن بالضرورة معنى السوء والشر . فهنـاك في الولايات المتحدة « جماعة ضغط » للدفـاع عن الملونين وفي فرنسا جمعيـات ضد « المشروبات الروحية » وجمعيات للدفاع عن الطفولة وغير ذلك . كذلك هنـاك « جماعات ضغط » لها هدف مادي محدود مثل « جمعية القناة الشمالية » .

عند ما تؤثر « جماعة الضغط » في البارلمان للدفاع عن مصـالح خاصة يطلق عليها اسم « جماعة الدهاليز » . وكلمة « لوبي » في الولايات المتحدة تعني الدهليز أو البهو ، الذي يمكن فيه ملاقاة البارلمـانيين ورجال السياسة . ولفظ (دهليز) مثل كلمة « مكتب » أصبح يدل على الكتلة المنظمة بعد أن كان يشير الى المكان .

الدعاوة السياسية :

ان التأثير المهني في الرأي العام يقرب من الدعاوة السياسيـة عند ما تهتم به كتلة اجتماعية واسعة . وما دام الأمر يقتصر على مهنة محددة المكان يطالب أصحابها بتدابير خاصة لمصلحتها فإن تهمة الصبغة

السياسية ليست واردة ؛ فقد رأينا مثلاً كيف أن أصحاب الكروم أو راكبي الدراجات قد دافعت عنهم جميع الأحزاب في المجلس النيابي . على العكس من ذلك العمل لمصلحة كتلة اجتماعية (المؤسسات ، الأجور والخ ..) فإنه يقترب كثيراً من السياسة . لا شك في أن النقابات قد أصبح من تقاليدها الإصرار على طابعها المهني ، ولا شك أيضاً في أن كل حزب يسعى الى اكتساب ناخبين في أوسع ميدان ممكن ، ولكن على الرغم من ذلك فإن الحد الفاصل بينهما واضح وضوحاً كافياً .

إن كل حزب سياسي يقوم ، في جميع الأحوال ، بالتأثير في الرأي العام حتى خارج الدورة الانتخابية . وهو يستخدم وسائل الدعاوة المعتادة من صحف وكتب ونشرات وخطب وإذاعة واعلانات على الجدران وأفلام والخ ؛ وكذلك الاحصائيات .

تعرف الدعاوة كيف تتصرف في الأرقام كما تتصرف في الألفاظ . والأرقام شواهد بريئة ، وهي بتأثير الالحاح والتعذيب تعترف سريعاً بكل ما يطلب منها ولكنها تستدرك أقوالها فيما بعد .

إن الدعاوة مثل الإعلان التجاري ، تستخدم التأثير الايحائي أكثر من الاقناع . فهي تلجـأ إلى الشارات والأعلام والأناشيد وعلامات التعارف والرموز والتحية ... لتبهر بها الحواس وتؤثر في ردود الفعل . كذلك تفعل الشعارات والكلمات المأثورة حينما تبدو

في مظهر عقلي .

مثـــال :

فيما يلي صورة استخدمهـا الحزب الشيوعي حوالي سنة ١٩٥٢ بمناسبة الاحتفال السنوي بثورة تشرين الأول ١٩١٧ . كانت الصورة تمثل أعلاماً حمراء وامرأة ترمز الى الجمهورية وقد كتب تحت ذلك : « الاتحاد السوفياتي ، قوة السلام وصديق فرنسا » . فهذه العبارة التي تعد مثلاً أعلى رائعاً في الايجاز والدقة لم يتم اختيارها بالتأكيد إلا بعد دراسة عميقة :

هناك أولاً كلمة قوة (بمعنى دولة عظمى) . فإن من واجب الداعية أن يظهر القوة دوماً حتى لو كان ضعيفاً . (بل انه كلما كان اضعف كان تظاهره بالقوة أكثر) . إن اصطلاح « قوة » لا يستغنى عنه هنا ولو استعملت عوضاً عنـه كلمة (أمة) لمـا كانت ملائمة .

ثانياً : ان كلمة « السلام » التي جاءت بعد ذلك مباشرة هي أيضاً لابدّ منها . إنهـا مضادة لكلمة قوة : فنحن أقوياء وفي استطاعتنا أن نكون أشراراً لأننا نملك الوسائل الضرورية ولكننا لانريد ذلك . وهذه الأسطورة المدرسية هي اسطورة العمـلاق الطيب القلب .

ثالثاً : صديق فرنسا : فقد كان لابد من استخدام هذا التعبير

ما دام الإعلان موجهاً الى الفرنسيين ؛ ان من واجب الدعاوة دوماً ، وعلى الأخص اذا كانت بين الدول ، أن تتحدث عن الأمة التي يوجه اليها الكلام .

إن الفكر الثلاث التي أريد التعبير عنها قد جمعت في هذه العبارة الموجزة . ودون أن نتخلى عن احترامنا المدين نستطيع مقارنة هذه العبارة بما جاء في كتاب العقائد المسيحية من « أن الله قوي ، لا نهاية لقوته وهو خير لا نهاية لخيره وأنه يكره الآثام . » إن الاقتباس هنا يكاد يكون كاملًا ..

الدعاوة بين المؤمنين :

يجب على الدعاوة أن تستخدم حججاً مختلفة بحسب ما يكون هدفها تثبيت رأي أو عقيدة ، أو اقناع المترددين ؛ أو التأثير في الخصوم لتحريضهم أو لتهديدهم .

أن الدعاوة بين المؤمنين ، المهتدين هي بحسب الظاهر أسهل نوع . على أنه لابد هنا من مكافحة عدو خطير هو الملل وما يتبعه من فتور وتشتت .

اذا شئنا أن نجعل الجنود مستمرين في نشاطهم واندفاعهم وجب علينا أن نكرر عليهم لمدة طويلة الكلمات ذاتها والتعابير المجربة نفسها ، يجب علينا التأكيد والتكرار دائماً ولكن لما كانت التعابير المكررة لابد من أن تنتهي الى الابتذال والضعف أو تصبح غير

ملائمة للوضع كان على الداعية أن يفطن الى الوقائع الجديدة الهامة ويتخير منها ما يناسبه ويعرضها في صورة صالحة من شأنها أن تدعم النظريات المعلن عنها وأن تؤيد القضية .

ان اصطفاء الأخبار يسمح بتزييف كل شيء مع مراعاة مظاهر الموضوعية . في تشرين الثاني سنة ١٩٥١ ظهرت نشرة بعنوان « محاسن امريكا » هي نموذج من نوعها ، لم تكن تشتمل الا على صور سبق نشرها في مجلات الولايات المتحدة وتكاد لا تصحبها أي شروح . وكانت هذه المناظر الحقيقية توحي بفكرة متشائمة جداً عن المجتمع الاميريكي . وقد اتبعت الطريقة ذاتها تجاه الاتحاد السوفياتي فجمعت من الصحف شواهد صحيحة ولكنها ، مختارة ، تحدث انطباعاً غير ملائم للغاية .

ليس هذا الفن جديداً ولكنه قد بلغ اليوم درجة من الاتقان والكمال يمكن معها القول ان « الحقيقة هي القالب الأساسي الذي يتقمص فيه الكذب . » على أن الاصطفاء وحده لا يكفي دوماً. عندما تكون الوقائع على درجة من الأهمية لا يمكن معها اخفاؤها ، وعندما يصبح عرضها صعباً حقاً [مثل الاتفاق الالماني - السوفياتي بالنسبة الى الشيوعيين أو فضيحة (دريفوس) بالنسبة الى المحافظين] فإن الداعية يغير الحديث وينقل النقاش الى ميدان آخر أكثر ثبوتاً .

كذلك يجب أن يحدث في نفوس المؤمنين انطباع عن القوة أو يحافظ على هذا الانطباع إذا كان موجوداً . يجب أن يقال لهم دوماً : « نحن أقوياء جداً ، ولا شك في أن الحق معنا مائة مرة ؛ على أننا في الوقت نفسه نملك القوة ... » إن العقل وحده لا يكفي لاستمالة الخائفين إلى جانبنا . على أن التأكيد للقوة لا يخلو من تأثير معاكس ، إذ قد يحدث للتابع ، المريد أن يقول أو يفكر كما يلي : « ما دمنا أقوياء الى هذا الحد فلم تعد هناك من حاجة إلى أن أجهد نفسي كثيراً . » مثل هذه الدعاوة خطرة في أوقات الحرب على الأخص ، لأن الفرد قد تفتر همته ويتهاون بسبب التصريحات المتفائلة . وهـــذا ماوقع بالفعل في سنة ١٩٣٩ – ١٩٤٠ .

في مثل هذه الظروف يقوم الداعية بدور مزدوج . وموقفه المتنوع الألوان يمكن التعبير عنه كما يلي : « إننا أقوياء وسنكسب الحرب بالتأكيد ، الا أن العدو يتربص بنا ليستفيد من كل نقاط الضعف والإهمـــال : اذا تابعنا جهودنا بإصرار وثبات فالنصر مؤكد .. » إن هذا الموقف الذي يقفه القائد في الحرب هو الذي نصادفه لدى كل قائد فرقة رياضية قبيل اللقاء في مباراة كبيرة . فهو يقول : « إننا نشعر بالثقة ، وبالثقة العظيمة . الا انه ينبغي لنا أن لانسمح لأحد بخداعنا وتخديرنا ، لأن خصمنا أبعد من أن

يغفل ويُهمل ولكننا سننتصر عليه في نهاية الأمر ..» كذلك سوف يقول دوماً كل وزير للمالية (تبعاً للطريقة ذاتها) : «الحالة المالية مرضية بفضل سياستنا ؛ الا انه يجب علينا أن لانتهاون ولا نتراخى ؛ فحذار من تضخم النقد . ان الخطر قائم يهددنا ، فلا يجوز أن تستوحذ علينا السهولة ..» وقد كان البارون (لويس)[1] يقول بالمعنى ذاته :

«يجب أن نسير تاركين العجز (في الموازنة) الى جانبنا .»

التأثير في المترددين والحياديين :

ان المترددين ومن لا رأي لهم هم الذين يتولون ، آخر الأمر ، دور الحكم في أغلب المناقشات الكبيرة . لذلك ينبغي أن نستميلهم الى جانبنا أو على الأقل أن لا نجعلهم يقفون ضدنا . فالداعية يتبنى آلامهم ومشاكلهم ويحترس من دعوتهم بعنف الى متابعتها والسير في اتجاهها مثله كمثل الراعي البرازيلي الذي يندفع في طليعة قطيع من الخيل الوحشية ينحرف به بعد ذلك في اتجاه آخر . ولا يقدم الداعية على تغيير الاتجاه في مدار واسع باديء الأمر إلا بعد أن يكون قد اكتسب مقدارا من السلطة .

ان الدعاوة «العمودية» تقع على الأفراد مثل الريح الجانبية

---

(١) البارون (لويس) وزير المالية في عهد الارتجاع وعهد لويس ـ فيليب [١٧٥٥ ـ ١٨٣٥] .

وتدفعهم الى رد الفعل والدفاع . فالشخص يقول لنفسه : « حذار ، إنه يراد التأثير في بالدعاوة ! » . مثل هـذه الخرافة التي تثير ردود فعل معاكسة ينبغي تجنبها . إن الحية تعرف مهنتها : فهي عندما نصحت حواء بأكل التفاحـة لم تفرض عليها هـذه المعصية بفظاظة ولكنها استخدمت وسائل غير معهودة ، منحرفة ولبقـة جداً . (أنظر كتاب « مخطط حية » لبول فاليري) .

يواجه الغاوي دوماً المشكلة نفسها ، مهما يكن الموضوع ، وهي : كيف يثير تحولاً في الشعور . ولا شك في أن هذا التحول يمكن أن يتم بسهولة أكثر في حالة تشبه فقدان الشعور .

إن الإعلام الخالص ، الصريح نادر جداً ، لأنـه أقل فائدة وتأثيراً ...

الدعاوة بين الخصوم والمعارضين :

الدعاوة بين الخصوم الذين اعتزموا حقاً المعارضة يجب أن تظهر قوتها قبل كل شيء . ليس هناك أحياناً من وسـائل أخرى غير التهويل والارهاب . أما تجاه الخصوم الذين هم أقل صراحة وتأكيداً فمن المستحسن اتباع دعاوة مماثلة لتلك التي تتبـع مع المترددين .

إن أقدم وسيلة للاقتناع هي محاولة تشويه سمعة الرؤساء وعزلهم عن الجمهور . فالداعية يكشف للخصوم تناقضات رؤسائهم أو يحاول دفع أحـد الرؤساء الى معارضـة الآخر . وعلى الخصمين ، اللذين

يختلفان ، أن يحترسا من الوقوع في الشرك . عدا ذلك فإن مثل تلك المحاولة إذا لم تكن على جانب كبير من اللباقة والمهارة فستكون نتيجتها الأساسية إعادة الوحدة المختلة الى صفوف الخصم .

ومن الأساليب التي تستخدم كثيراً ، دون أن يكون لها تأثير كبير ، الكشف عن أخطاء ارتكبها الحزب المعارض في الماضي .

القضية الحق والحجج الباطلة :

كل واحد يعتقد مؤكداً أن قضيته حق ، ولكنه لا يشعر دوماً بأن ضميره مرتاح . لنسلم أن الهدف حميد حقاً ، كأن يكون النضال ضد إحدى المصائب الاجتماعية ؛ فالذي يحاول بعد اطلاعه جيداً على الموضوع أن يقنع الآخرين سرعان ما يلاحظ أن الحجج التي يأتي بها لا تؤثر كلها في الرأي بصورة متساوية وأن أقوى الحجج من الوجهة العملية ليست هي بالضرورة أكثرها اقناعاً .

بين جميع الحجج التي تذكر ضد إدمان المشروبات الروحية يبدو أن أشدها تأثيراً هي الحجة المتعلقة بانحطاط النسل وتفسخه بطريق الوراثة . على أن هذه الحجة هي أبعد ما تكون عن أن تثبت صحتها علمياً .

كذلك من الحجج المتعلقة بموضوع زيادة النسل التي تركت أثراً في الرأي العام قبل الحرب أن سكان فرنسا معرضون الى خطر هبوط عددهم الى (٢٩) مليوناً في نهاية فترة معينة . لقد كان

من الممكن أن يذكر هنا رقم (٣٠) عوضاً عن (٢٩) ، لأن هذا الرقم لم يكن في ذاته أكثر أهميــة من أي رقم آخر للدلالة على تناقص عـدد السكان ، ولكنه رغم ذلك كانت له قوة ايحائيـة خاصـة .

وفيما يلي مثال آخر أكثر غرابـة : ان تمديد الحياة العمليـة (الذي يحتمه ازدياد شيخوخة السكان) وعلى الأخص تأخير سن الإحالة على التقاعد يلاقيان معارضة شديدة من الرأي العام ، ولكن هذه المعارضة تتضاءل إذا انتقل الحديث الى موضوع إطالة الحياة . على أن شيخوخة السكان لم تكن حتى الآن ، رغم ما يبدو في ذلك من غرابة باديء الأمر ، نتيجة لإطالة الحيـاة ، بل لتناقص نسبة المواليد فقط ، ولكن الرأي العام لا تؤثر فيه هذه الحجة كما يؤثر فيه شعار « البنسلين » .

إن من يريد الدفاع عن قضية مستندة الى حقائق علمية يجب أن لا يستثمر استعداد الرأي العام للتأثر ولا يحاول إساءة استخدام هذا الاستعداد . لا شك في أنه يستطيـع افساح المجال للحجج المؤثرة إذا كانت لها قيمة مؤكدة ولكن لا بد له دوماً من أن يرفقهـا بنظرة شـاملة ودقيقـة تهدف الى التعليم والى السمو بأفكار الذين يستمعون اليه ، لا إلى جرهم خلفه بردود الفعل الشرطية .

الفصل الثاني عشر

الطرق والخمور

بين الجهود التي بذلتها المنظمات المهنية في فرنسا المعاصرة للتأثير في الرأي العام تبرز على الأخص الحملتان المتعلقتان بالطرق والخمور . فإن ما اتصفت به هاتان الحملتان من شدة في التأثير وتنوع في الوسائل التي استخدمت والنتائج التي تم الحصول عليها – كل ذلك يجعل منها حقلاً ممتازاً للتجارب .

١ — الطرق

كانت الطرق وحركة السيارات من الأسباب التي أدت منذ ثلاثين سنة إلى قيام محاولة قوية ومحكمة للتأثير في الرأي العام دون أن تعرف نتائجها معرفة جيدة .

أصل الدعاوة في مسألة الطرق :

لقد حظيت صناعة السيارات وحركة النقل بالسيارات بعد الحرب العالمية الاولى بمساعدة رجال من أعلى مستوى ، كان اندفاعهم هنا يتناقض مع ما ظهر اذ ذاك في كثير من فروع الصناعة من الحذر ، بل من الميل الى مذهب (مالتوس) المتشائم .

كانت صناعة السيارات هي الوحيدة التي كان يمكن التحدث عنها بروح تقدمية . على أن هذه الروح المندفعة نحو الفتح قد اصطدمت منذ باديء الأمر بقوى الجمود وبمعارضات فعلية كان يقتضي التغلب عليها عن طريق التأثير في الرأي العام . وكان يبدو أن هناك على وجه التخصيص عائقين خطيرين :

أ ـ الاعتقاد الراسخ في بعض البيئات بأن السيارة من مظاهر الترف ؛

ب ـ التعسف الضريبي . وعلى الرغم من أن الأمر يبدو غريباً فالواقع هو أن ضريبة البنزين لم يتم أبداً تحديدها بالاستناد إلى الحسابات ، ولا بالاستناد إلى أي اعتبارات عقلية . لقد فرض على البترول في الأصل أن يصنف في زمرة « المحصولات الاستعمارية » مثل السكر والقهوة والكاكاو والخ ، تبعاً لتقليد متوارث من القرن الثامن عشر . وبعد حرب ١٩١٤ كثرت السيارات وأخذت تتزاحم في الطرق وتخربها . واعتبر ذلك مسوغاً لاستيفاء ضريبة لم يكن من الممكن فرضها على العجلات في عهد احتكار السكك الحديدية .

على أن البـارلمان الذي تنقصه دوماً الأموال ولا يتسع له الوقت أبداً للدراسة كان ينـدفع في آخر يوم من كل سنة إلى تحقيق التوازن في الميزانية بالاقتراع في منتهى الاستعجال على فرض بعض الضرائب غير المباشرة ، وعلى الاخص ضريبة البنزين . وقد بدا لصناعة السيارات في تلك الفترة أنه قد استنزف دمها بطريقة تعسفية . ولم يكن هناك من سبيل الى اصلاح الوضع الا بحملة قوية للتأثير في الرأي العام . وكان رجال هذه الصناعة يعتقدون أن ذلك قضية حياة أو موت .

شدة الدعاوة :

لم تشترك في الحملة صناعة السيـارات ومنظمات النقل فحسب ، بل اشترك فيها أيضـاً منتجو دواليب المطاط وأصحاب الفنـادق وشركات البترول وشركات السياحة والخ .. ، ثم أن الصحـافة الاخبارية كلها انضمت بالفعل الى هذه الجبهة .

كان الموضوع العام بسيطاً ومغرياً : ان السيـارة ، التي هي وسيلة للتقدم ، وقعت ضحية البيروقراطية الجامدة والعمياء .

ظلت هذه الحجة دون جواب تقريباً . وقد حاولت شركات السكك الحديدية الكبرى أن تقوم بحملة معاكسة مـدة من الزمن ولكن موقفها لم يكن حسب الظاهر سليما في نظر الرأي العام ، كما ان القائمين عليها كانوا ، من جهة أخرى ، ينـالون ارباحاً

ورواتب مضمونة ، فكان طبيعياً أن تخمد روح النضال لديهم بسرعة .

وقد عرفت الدعاوة ، بعد ان اصبحت تسيطر وحدهـا على الميدان ، كيف تستخدم وسائل غير معتادة بمنتهى المهارة والقوة . فانقلبت أسطورة « السيارة ــ الضحية » تدريجيـاً الى عقيدة حتى أن الكثيرين من الأشخاص الذين لا علاقة لهم بتاتاً بالنزاع ، بل وبعض مهندسي السكك الحديدية انفسهم قد اعتنقوها .

وقد عهدت كل صحيفة ، مهما تكن نزعتها ، في تحرير القسم الخاص بالسيارات الى شخص من « الكتلة » المشرفة على الدعاوة وهذا ينشر بطبيعة الحال الحجج المعهودة عن نية حسنة . وهكذا تغذى الأسطورة بسهولة وبنفقات قليلة نسبياً .

أضف الى ذلك ان جميع الذين يتمتعون بشيء من السلطة في فرنسا أي جميع الذين يشتركون في الادارة والحكم والتنظيم والخطابة والكتـابة والخ .. كانوا يستخدمون السيارات ويؤلفون بالتالي أرضاً صالحة لنمو الاسطورة ، مهما تكن نزعاتهم السياسية أو ميولهم الأخرى .

بعض النقاط الفنية :

لا مجال هنا للكشف عن ضعف الرأي العام الذي يتكون بهذه الصورة المصطنعة . إن ذلك يحتاج الى تحليـلات دقيقة وشاقة

أحيانـاً . فلنقتصر على الاشارة باختصار الى بعض النقاط :

— إن عمليات النقل يتم توزيعها بـين السكك الحديدية وطرق السيارات طبقاً لقاعدة بسيطة : فالعمليات الخاسرة أو التي ليس لها خطورة كبيرة يعهد فيها الى السلطات العامـة (أي الى السكك الحديدية) في حين أن العمليات الرابحة تستأثر بها المشاريع الخاصة . والمبالغ الطائلة التي اقتطف على هذا الوجه انما يدفعها المكلف .

— تتطلب المصلحة الوطنية أن تتم كل عملية نقل بالطريق التي تحقق أكبر نفع . ولكن الواقع هو أن نقليـات غير اقتصادية واسعة النطاق تتم على حساب الأمة بسبب اختـــلاف التعريفات والرسوم . اذا أرسلت قافلة سيارات من (مارسيليا) الى (باريس) فانها تكلف من المحروقات وساعات العمل والخ .. أكثر مما يكلفه قطار اضافي على السكك الحديدية . إن هذه القافلة المؤلفة من (٢٠) سيارة شحن يقودها (٢٠٠) سائق يستخدمون أيديهم لتغيير الاتجاه عند (٥,٠٠٠) منعطف ليست سوى تعطيل فني خطير .

— إن تكاليف الطرق (من صيانه وتركيز اشارات والخ ..) باهظة أكثر مما يقال ، ولكن الأمر يبقى خافياً لأن هذه النفقات توزع على مختلف أبواب الميزانية العامة والميزانيات المحلية في حـين أن نفقات السكك الحديدية تجمع كلها في باب واحد فيعرفها الجميع .

— ان سعر البنزين والمحروقات السائلة واحد للمستهلك الذي

يستخدم الطرق والذي لايستخدمها ، ماعدا بعض الحالات الاستثنائية. وتخفيض السعر للجرارات ليس جوداً على المزارعين بقدر ماهو تعويض جزئي عن زيادة في المصروف لامسوغ لها . وكان لابد من الانتظار حتى سنة ١٩٥٥ لادراك أن الطائرات لاتستخدم الطرق وأنه يبغي بالتالي تخفيض سعر البنزين لها أيضاً جزئياً .

– لم يحسب عند تقرير الرسوم حساب لنفقات التنمية والتوسع . فإن السيارات قد استولت ، في باديء الأمر ، على شبكة من الطرقات كانت قائمة ومدفوعة نفقاتها ولكن مع ازدياد حركة السير ظهرت حاجات جديدة آخذة في الاتساع ، وبوجه خاص ، كانت هناك ضرورة لإعادة بناء مدن كبيرة بكاملها في سبيل تأمين حركة سير طبيعية .

هنا نرى قوة تأثير الدعاوة وضررها : فهي قد أدت الى تطور صناعة السيارات بسرعة زائدة (بالنسبة إلى الفروع الأخرى دون شك) وبذلك نشأت عنها انحرافات خطيرة كانت حركة السير نفسها ضحية لها .

وإذا تقدمنا أكثر من ذلك نلاحظ بان الهدف المحدد يستحيل بلوغه : فلأجل نقل الأشخاص الذين يستخدمون أحد خطوط (المترو) خلال ساعة واحدة (والذين يبلغ عددهم « ٥٠ » الفاً) يجب أن يكون هناك أربعة خطوط للسيارات الكبيرة تتطلب شارعاً لا يقل

عرضه عن « ٣٠ » متراً أو يجب أن يكون هناك عدد من السيارات الخاصة تتوزع على شارع يبلغ عرضه « ٣٠٠ » متر .

إن السيارة الفردية داخل باريس تكلف غالياً الأشخاص الذين يستخدمون وسائل النقل المشتركة على سطح الأرض . فإن النفقات السنوية الناشئة عن ازدحام السيارات في العاصمة تبلغ ما يقارب « ١,٦٠٠ » مليون أي ثلاثة فرنكات لانتقال الشخص مرة واحدة و « ٢,٠٠٠ » فرنك في السنة لكل شخص ينتقل بالسيارات الكبيرة مرتين في كل يوم .

هذه الحقائق لم يذكر منها أي شيء في الصحف ، وليس هناك من احتمال في أن تنشر بعد الآن .

النتيجة :

إن نجاح هذه الدعاوة على أتم وجه يمكن تصوره لأمر يسترعي الانتباه . فالبارلمان قد ألغى الضريبة على السيارات وفرضها على مستهلكي البنزين أي على أشخاص بعضهم يستخدم السيارات وبعضهم لا يستخدمها . وفرنسا هي البلد الوحيد في هذه الحالة .

على أنه يجب أن نضيف نتيجة وحيدة في نوعها الى النجاح السياسي الذي أحرزته « كتلة الضغط » والذي يعتبر ظاهرة معتادة ، ونعني بذلك أن الرأي العام قد تأثر بالدعاوة الى درجة لم يعد يلاحظ معها أنه قد خضع لتأثيرها . وهذا أحسن دليل

على النجاح .

في هذه المرحلة لا تستطيع أي قوة مكافحة التيار . إن الموضوع لم يعد يدور حول محاربة المصالح ، بل حول محاربة الأهواء . والصحافة ما زالت تدعم العقيدة المحبّبة دون أن تنال أجراً على ذلك . وليس هناك من صحيفة لها من القوة ما يساعدها على تقرير الحقيقة وتأييدها . وعندما حاولت جريدة (اكسبريس) ذلك في سنة ١٩٥٤ تعرضت الى تهديدات لا مثيل لها يدل أكثرها على سخط صادق .

ان الشخص المنعزل الذي يسعى الى اعادة الأمور الى نصابها واظهارها على حقيقتها ينظر اليه كما ينظر الى عدو للتقدم أو محب للمخالفة .

٢ — الخمور

تسترعي الخمور الانتباه من وجهين : أولاً تقطير المواد الزراعية الفائضة ؛ وثانياً : ادمان المشروبات الروحية .

تقطير المواد « الفائضة » :

إن فروع الزراعة المختلفة ولاسيما جماعة الشمندر السكري قد توصلت الى تصريف محصولاتها دون تخفيض الأسعار بأن فرضت على الدولة أن تشتري بأسعار مرتفعة جزءاً من المحصول أو على

الأصح الكحول الذي يستخرج من المواد الزراعية . وهكذا يربح هؤلاء المزارعون على صعيد الكميات وفي الوقت نفسه على صعيد الأسعار وبذلك يتمتعون بامتياز يكاد يكون وحيداً في نظام قائم على التبادل . وعلى العكس فإن سائر السكان يدفعون ضعفين : وذلك لشدة ارتفاع الأسعار من جهة ولسبب الضرائب التي يدفعونها لتمويل شراء الخمور التي لا يمكن بيعها من جهة ثانية .

في سبيل فرض مثل هذه العمليات التي تعد نكبة للأمة قام أصحاب المصالح بحملة قوية للتأثير في الرأي العام . وقد اتجهت المساعي في أول الأمر الى دفع الناس الى اتخاذ موقف حيادي ، غير مكترث عن طريق (التشويش المنتظم) واحــاطة المسألة بالضباب (حسابات معقدة ، نفقات مستورة ، ايرادات ظـاهرة والخ ..) ثم بدأت الحملة المباشرة : وكان من أبرز وسائلها فيلم بعنوان (٩٠ درجة في الظل) عرض أثنـاء القسم الأول من المشاهد التجارية كانت غايته الكشف عن الفوائد التي يجنيهـا السكان من تقطير الشمندر على حساب الدولة . لقد نجحت هذه الحملة خلال سنوات طويلة . وعلى الرغم من النقص الكبير في السكر بين سنة ١٩٤٤ وسنة ١٩٤٨ لم يرتفع صوت الرأي العام ضد اتلاف هذه المادة الغذائية الثمينة . ولم تبرز الحقيقة الاتدريجياً بفضل الجهود المتوالية التي قامت بها أقلية من الناس . وقد تخلى أصحاب المصالح

المهددة عن العمل لإستمالة الرأي العام إلى جانبهم في ذلك الوقت واقتصروا على التأثير في البارلمان وفي السلطات السياسية . ومع ذلك كتب لهم النجاح . وكان لا بد من انتظار سنة ١٩٥٤ (قيام حكومة مانديس ـ فرانس) حتى تتخذ تدابير فعالة حقاً ضد تلك الأعمال التي كان إضرارها بذكاء الأمة وتفكيرها أشد من إضرارها بثروتها .

إدمان المشروبات الروحية :

لا تصرح أي فئة من الرأي العام بانها تحبذ إدمان المشروبات الروحية . ومع ذلك فإن اسطورة ثابتة قد شاعت بين السكان . وبما أن كلمة كحول لم تكن مستساغة فإن الدعاوة وجهت جهدها إلى الخمر . ومما يسهل المهمة ان الخمر يتمتع منذ آلاف السنين باحترام له صفة دينية أيضاً . وهي تجد في الآلاف من الأناشيد وأغاني الشراب والأشعار . ثم انها أحد مظاهر التهرب الأبدي من الواقع .

وفي سبيل تهوين الأمر على الجمهور وجّهت الدعاوة بالأخص إلى الخمر الجيدة كما وجهت الانظار أيضاً إلى صفتها الوطنية . وقد كتبت على ورقة للدعاوة العبارة التالية : « ان وطن زراعة الكروم في خطر ، فتجندوا ! » وهناك ضارب بالطبل يشبه

(بارا[1]) أو يشبه طبال (آرقول[2]) يدعو الناس الى ان « يتجندوا » في « لجنة العمل لنشر الحقيقة عن الكحول وادمانه » .

وبلغ الأمر بآخرين الى القول إن حرب ١٩٣٩ — ١٩٤٥ إنما خسرها الفرنسيون بسبب فقدان النبيذ . وتبذل الجهود لتلطيف الأسطورة بالتستر وراء التربية الوطنية أو بإقحام اسم (باستور) والخ .. وتنشر الدعاوة للخمور حتى بين أطفال المدارس .

وما أن توطدت جذور الأسطورة التي تحبذ النبيذ حتى أصبح من الصعب جداً مكافحة ادمان المشروبات الروحية وذلك لسببين الأول ان قسماً كبيراً من المدمنين انما يشربون النبيذ والثاني هو تعقد المسائل وتشابك المصالح الخاصة .

الصدق وخلوص النية [3] :

الرأي العام مخلص دوماً ، كما سبق أن قلنا . والأشخاص الذين

---

(١) طفل افرنسي اشتهر ببطولته أثناء الثورة الفرنسية وانضم الى جيش الجمهورية فقتله أتباع الملك . وقد وضع تمثاله في (البانثيون) بقرار من المجلس الوطني . (المترجم)

(٢) موقع إحدى معارك نابليون في إيطاليا .

(٣) راجع مجلة (السكان) عدد كانون الثاني — آذار ١٩٥٤ : « استقصاء عن الرأي العام وموقفه تجاه ادمان المشروبات الروحية » ثم كتاب « ادمان المشروبات الروحية » في مجموعة « ماذا أعرف ؟ » رقم ٦٣٤ .

يؤلفون هذا الرأي العام إنما يكبتون فيما تحت الشعور الشكوك التي قد تخامرهم . لذلك فإن العقائد المنتشرة عن النبيذ لا ينقصها الاخلاص التام المصحوب اضطراراً بعدم التبصر وفقدان التأمل .

في أثناء سبر للرأي العـام سنة ١٩٥٣ طرح السؤال التالي : « هل تعتقد أن شرب النبيذ بالنسبة الى رجل يقوم بعمل جسمي شاق هو أمر لا غنى عنه أم مفيد أم غير مفيد أم مضر ؟ » وكان بين أجوبة الرجال (٣٢٪) تقول أن ذلك لا غنى عنه و (٥٨٪) أنه مفيد . وهكذا كاد أن يكون الرأي اجماعياً .

ثم تبع ذلك سؤال آخر بعيد الغور ، نافذ وهو : « هل العمال الأجانب الذين لا يشربون النبيذ ولا الجعة في بعض البلدان هم في نظرك أدنى من العمال الفرنسيين ؟ » تجاه هذا السؤال تزعزعت الأسطورة . فالأفراد لم يفكروا أبداً في مثل هذه المقارنة . وقد أجاب (٢٢ ٪) فقط من الرجال بأنهم يعتقدون ان العامل الاجنبي أدنى ، وكان بعض هؤلاء إنما تمسكوا بهذا الجواب خوفاً من أن يناقضوا أنفسهم .

كذلك أجاب (٣٤ ٪) فقط من الرجال بأنهم يعتبرون النبيذ مفيداً أو لاغنى عنه بالنسبة الى اللاعبين الرياضيين .

وقد اعترف أكثر الفرنسيين بمعارضتهم لامتيازات أصحـاب الكروم الذين يقطرون محصولاتهم بأنفسهم ولكن هـذه الآراء المعارضة لم يكن يهمس بها الا في السر ولم يطلع عليها الا القائمون

بالسبر . أما الآراء المعلنة فكانت على العكس تؤيد الامتيـاز . وهكذا نرى كيف أن مبدأ الاقتراع العام ينهار ويفقد كل قيمة .

وقد ظلت الحركة المعارضة لادمان المشروبات الروحية مقتصرة مدة طويلة من الزمن على بعض العقـــلاء والأخلاقيين الذين كانوا يتحمسون لفكرتهم أحياناً من غير أن تؤدي كثرة عددهم الى التأثير الفعلي في الرأي العام .

ثم طرأ أمر جديد بعد الحرب العالمية الثانية : فقد أمكن تسجيل حقائق كمية دقيقة في الميدانـــين الصحي والاقتصادي ، كما أمكن قياس الأضرار على وجه التقريب . وبعد أن خرجت القضية من نطاق الوعظ الأخـلاقي الذي كانت محصورة فيه على الأغلب أخذت تؤثر تأثيراً واضحاً في الرأي العام بالاستناد قبل كل شيء الى حجتين : الاولى مادية تقول إن « هذا الداء يـكلف أموالاً طائلة يدفعها الناس » ، والثانية عاطفية تقول إن « الأطفال يحكم عليهم بالبؤس والشقاء . »

الرأي العام والخمور :

إن مسألة تقطير« المواد الزراعيةالفائضة » ومسألة إدمان المشروبات الروحية مرتبطتان ارتباطاً وثيقاً رغم انهما منفصلتان حسب الظاهر . ذلك أن التقطير ينتج خموراً غالية يصعب رواجها ويبدو ان افضل طريقة رابحة لتصريفها هي صنع النبيذ منها . وعـدا ذلك فان

الاوساط ذاتها لها مصلحة مادية في الموضوع . وقد تكونت ثلاث فئات بين السكان بالنسبة الى ادمان المشروبات الروحيـة وتقطير المواد الفائضة ، وهي :

أ ــ أصحاب المصالح الخاصة الذين يعيشون من الخمور ويشعرون بالخطر يهددهم . وقد تألفت منهم كتلة قوية ظهر تأثيرها في البارلمان أكثر مما في الرأي العام ؛

ب ــ على النقيض من ذلك أقلية نشيطة تسعى الى تنوير الرأي العام واقناع السلطات العامة ؛

ج ــ وبين الفئتين رأي عام يزداد شعوراً بالاضرار التي تصيب السكان والاقتصاد ويبدي استعداداً لقبول تدابير معقولة كفيـلة بتخفيف تلك الأضرار .

ولكن بالنظر الى الحقد العام تجاه « الدولة » فإن هذه الكتلة المشايعة لا تؤيد الحكومات التي تحاول مكافحة الداء تأييـداً قوياً وبصورة خاصة لم يحدث أبداً أن ثار الرأي العام حقاً على تقطير « المواد الفائضة » . إلا أن كل جماعة وكل فئة في المجتمع كانت لا تتردد في الاستشهاد بوجود هذا التبديد والإسراف لدعم مطاليبها الخاصة ..

نظرة اجمالية :

إن الحملتين المذكورتين اللتين تعتبران من أقوى الحملات المهنية

للتأثير في الرأي العام لم يكن حظهما من النجاح متساوياً : فالحملة في سبيل السيارة قد نالت نجاحاً تاماً إذ استطاعت أن تخفي المشكلة وأن تخلق عقائد بلغت درجة عظيمة من الرسوخ لم يعد من الممكن معها القيام بدراسات موضوعية أو على الأقل نشر نتائج مثل هذه الدراسات . أما الحملة الأخرى في سبيل الخمور فلم تنجح إلا جزئياً . إنها ، لا شك ، تستند الى أحكام سابقة تقليدية والى تمجيد للنبيذ يكاد أن يكون دينياً وهي تسعى الى الدفاع عن نظام الخمور بأكمله اعتماداً على هذه الجذور العميقة . ولكنها لم تنجح في منع انتشار المعطيات والحقائق الموضوعية والعلمية ولذلك فهي تحارب في مراكز ضعيفة والوقت يعمل ضدها ولو ببطء ...

الفصل الثالث عشر

الاعلام والديموقراطية

ذكرنا في الفصل الثالث كيف يتم إعلام الجمهور وبيّنا مدى النقص والضعف في هذا الإعلام ، إذ ان رواة الأخبار يوجهون كل اهتمامهم في الغالب الى التملق واطراء الاحكام السابقة ويتشبثون بالأخطاء التي ارتكبت بل يحاولون سوق الذين يخبرونهم أو بالأحرى ، الذين يتقبلون منهم الأخبار ، الى اعتناق وجهات نظرهم .

وعلينا الآن أن نوضح الدور الذي يقوم به اعلام الرأي العام في سير المجتمع وعمله .

السلطة الرابعة أو الخامسة :

تقوم الديموقراطية الغربية على أساس تقسيم السلطات . وهي

تعترف بأن سلطة وحيدة عليا قد تكون لها آثار ممتازة ولكنها في الغالب تؤدي الى كوارث ، ولذلك تفضل هذه الديموقراطية تقسيماً يعرقل السير بالضرورة ، إلا أنه يسمح ، عن طريق عمليات التعويض ، بتحقيق بعض التوازن واجتناب أسوأ العواقب .

على أن السلطات الثلاث التقليدية من تشريعية وتنفيذية وقضائية ليست هي السلطات الوحيدة . ونستطيع أن نذكر بين السلطات الأخرى السلطة التعليمية ، وسلطة الإعلام .

ما زالت المنازعات ، التي تتصف بالعنف أحياناً ، تدور حول السلطة التعليمية في مختلف البلدان . والقضية لم يمكن أبداً البت فيها ، وهي لا تجد في الحاضر سوى حلول وسطى مرضية قليلاً أو كثيراً .

على العكس من ذلك سلطة الإعلام ، فقد انتهى الحكم فيها أو خيل الينا أنه انتهى بتقرير مبدأ حرية الصحافة . ان ذكرى الثورات التي اشتعلت في سبيل الدفاع عن هذه الحرية لا تزال تلهم مؤسساتنا إلهاماً تاماً وإن كانت هذه المؤسسات قد تطورت في النواحي الاخرى .

لو أدت حرية الصحافة الى ظهور عدد كبير متنوع من النشرات التي تعبر بالتساوي عن جميع الآراء لانحلت المشكلة من نفسها تقريباً (نقصد دوماً حسب مفهوم الديموقراطية الغربية) وذلك بتقسيم

السلطة ذاتها وبتأثير التعويض والتعديل . ولكن الأمر ما زال في الواقع بعيداً عن ذلك . فإن النفقات المرتفعة جداً كانت دوماً تساعد المدافعين عن رأس المال على الاستئثار بوسائل الإعلام . وقد زاد في اختلال التوازن تجمع وسائل الانتاج في أيدي القلائل .

تدنى عدد الصحف اليومية في الولايات الاميريكية المتحدة من سنة ١٩١٠ الى سنة ١٩٥٢ بمقدار (٣٢٪) ؛ وعدد الصحف الاسبوعية بمقدار (٤٤٪) . وفي فرنسا هبط عدد الصحف اليومية بين سنة ١٩١٤ وسنة ١٩٤٥ من ٤٨ صحيفة الى ١١ في العاصمة ومن ٢٦٩ الى ١٢٣ في المحافظات . وهناك ما يشبه احتكار الإعلام في عدد كبير من المدن .

لا شك أن في البلاد بجملتها أنماطاً مختلفة من الآراء . إلا أن التجمع في المركز قد أدى الى تكوين كتل متجانسة ، جغرافية أو اجتماعية ، مؤلفة من أشخاص تصلهم الأخبار بطريقة واحدة تكاد تكون دوماً متحزبة أو مثيرة . وبذلك تزداد التناقضات والخصومات شراسة وعقماً .

إن الإعلام الذي تقوم به الدعاوة الرأسمالية وتتوصل في الغالب الى إخفاء حقيقته بمهارة ينتج عنه رد فعل من الإعلام المتطرف في الناحية الأخرى . وهذا الازدواج يبعدنا كثيراً عن التوازن التقريبي الذي يسمح به نظرياً تشتت الآراء .

الاذاعـــة :

إن التجمع والتركيز في الاذاعـة أقوى وأبعد مدى ؛ فإن مئآت الآلاف من الاشخاص يتلقون الأخبار في جميـع الأيام من مصدر الإعلام نفسه ويتعرضون بذلك إما الى خطر الخضوع لسيطرة هـذا المصدر أو الى خطر الرد عليه بعنف ، وبالتـالي الوقوع في تطرف معاكس .

إن إذاعة الدولة في فرنسا ليست خالية من التحزب والمحاباة .

وإذا كنا ندرك جيداً أن من حق الحكومة استخدام هـذه الوسيلة القوية لتشرح للمحكومين دوافع أعمالها ، إلا اننا لا نوافق على أن تسيء الاستعمال وتحرف الاخبار لمصلحتهـا عند ما يحـدث اضراب أو عصيان في أرض تابعة لفرنسا . وأخيراً فإن الاذاعـة تقع من نواح عديدة في خطأ آخر وهو تملق السـامع وتقديم أخبار ملائمة له واقصاء الأخبار العلميـة التي يمكن أن يتعلم منها أي التي تسمو بفكره وحشر مثل هذه الأخبار في « الساعات الجوفاء » . على إننا حقاً نصطدم هنـــا بصعوبة كبيرة وهي : كيف تعرف الحقيقة وأين يمكن الحصول عليها ؟ كيف نحدد بالضبط المصلحـة العامة في مختلف الحالات المشخصة ؟

السعي الى توحيد وجهات النظر :

يقع الرأي العـــام دوماً في حيرة ويضل عن الطريق عند ما

يستمع الى وجهات نظر متباينة وعلى الأخص عند ما يتلقى أخباراً يناقض بعضها بعضاً . وهو لنقصان معرفته يندفع حينئذ متأثراً بالعوامل الانفعالية وحدها .

ومشكلة وحدة وجهات النظر التي قامت منذ آلاف السنين قد جرى حلها على طريقتين :

ـ أولاً : باحتكار الإعلام . هذا ما أقدمت عليه جميع الاديان وكذلك المذاهب الصوفية . وذلك هو أيضاً الحل الذي اختير مؤقتاً في العالم الشيوعي . وسنعود الى بحث هذه النقطة الأخيرة .

ـ ثانياً : باتباع الملاحظة العلمية .

ولنبدأ بالكلام على الطريقة الثانية :

هل هناك حقيقة علمية :

الحدث العظيم في العصور الحديثة هو تقدم الملاحظة العلمية . والعلماء إنما يسعون الى معرفة الحقيقة . وقد بلغت التجارب في بعض الأمور ، مثل دوران الدم وكروية الأرض التقريبية ، درجة كافية من الاقناع القاطع تمكن من الاتفاق . وعلى الرغم من أن هذا الاتفاق يظل دوماً مؤقتاً فهو الذي يمثل الحقيقة العلمية .

ولكن وراء هذه المنطقة المشتركة يبدأ التباين في وجهات النظر . وبالأجمال فإن الأمر هنا يقتصر على طلائع تتقدم في بقعة مجهولة . لذلك يجب إعلام الرأي العام بصدق واخلاص واطلاعه على الفرضيات

والنظريات المختلفة الموجودة في الميدان .

على أن الوحدة التامة في وجهات النظر لا تتم إلا بالاستناد الى آلات القياس . ولما كانت الآلات مجردة عن الروح فليس لها أحكام سابقة ولا أفكار خاصة . لذلك يعتمد العلم على الآلات أكثر ما يمكن ولا يركن الى أحكام الناس إلا أقل ما يمكن . والناس إنما يقررون حكم الوقائع القاسي .

ليس العلماء في الحقيقة سوى بشر . وهم كثيراً ما يتبعون الاحكام السابقة أو ينقادون لحب الذات . الا انهم لايستطيعون الصمود مدة طويلة تجاه الوقائع التي تتم مشاهدتها بدقة وبصورة آلية . لهذا السبب فإن الاتفاق في المسائل الاجتماعية أعسر بكثير مما في غيرها لأن التجريب فيها صعب ولأن الأحكام السابقة أو الأهواء المتصله بها قوية ..

الاعلام الشيوعي :

لننظر الآن كيف يتم اعلام الرأي العام في النظام الشيوعي . إن وحدة وجهات النظر تتحقق عن طريق قيادة لجنة أو زعامة رجل واحد . أما التوازن التقريبي ، الذي يحاولون في الغرب تحقيقه عن طريق عمليات التعويض والتسوية ، فإنما يتم هنا بتقرير حقيقة تركيبية وحكم قاطع . وكلما كانت المنطقة التي يسمح فيها بالتطور أضيق كانت الستارات التي تحدث في داخلها أشد وهذا يوجب

القيام بحركة تطهير من حين الى آخر

كل من اعتاد الطريقة العلمية لا يمكنه الا أن يشعر بالدهشة والحيرة عندما يرى كيف يتصرف القائمون على الإعلام الشيوعي بالوقائع وكيف يقلبون التاريخ تبعاً لنزوة سخط لاحقة . وقد وجهت انتقادات شديدة الى هذا الأسلوب ، على الأخص عندما اتبع في المسائل الفيزيائية أو الطبيعية مثل علم الفلك أو علم الحياة .

ولكن حتى لو لم نتذكر أن التاريخ ، كما نكتبه ، مازال بعيداً عن مطابقة النموذج الذي نحلم به ، فلا بد لنا من أن نحكم على هذا الأسلوب أيضاً من وجهة نظر أخرى ، أي وجهة تطور الزمن . وسواء أكان القادة يشعرون بذلك أم لا فإن وحدة وجهات النظر في النظام الشيوعي سوف يتم تحقيقها يوماً ما بوسائل أخرى قريبة من مفهومنا عن الإعلام العلمي الذي لا بد له هو أيضاً من أن يتطور بدوره :

أ ـ إن الحقيقة التاريخية سوف تثبت وتقرر (بقدر ما يمكن) عند ما تخلو من المحاذير والأضرار السياسية التي نجمت عنها في الماضي . فالعائلة المالكة الانكليزية قد أصبحت اليوم راسخة الى حد لم تعد ترى معه أي محذور في أن تستعرض كتب التاريخ المدرسية أعمال الخيانة والمكر التي قام بها (ويليام الفاتح) ، مؤسس الأسرة في سبيل اغتصاب العرش الذي لم يكن له فيه أي حق .. كذلك

السلطات السوفياتية لن تبدي يوماً ما أي اعتراض على أن يذكر إسم (تورونسكي) وأن يطلع الناس على معركة الأفكار التي اضطرت الحكام الى طرده كعنصر غريب ، يوم كان لا بد من تأمين وحدة المذهب .

ب – في بعض الأمور تفرض الحقيقة نفسها بنفسها . نقصد بذلك أن الإعلام المنتظم ، المتواصل ببعض الوقائع يمكن أن يؤدي الى تحقيقها كما تحقق سقوط أسوار « أريحا » (١) من تلقاء ذاتها .

ج – ان الميدان الذي يسمح فيه للفكر بالتطور ضمن حدود المقدسات سوف يزداد اتساعاً (فهو ، في الغرب أيضاً ، ليس غير محدود) ، ومنذ الآن تبدو في الاتحاد السوفياتي مقدمات لمثل هذا التطور وهو لا يمكن أن يكون إلا بطيئاً يتردد بين الحرية والرجوع الى احتكار الفكر .

السلطة والرأي العام :

لا تعرض هذه المشكلة في الاتحاد السوفياتي إلا ضمن الحزب ؛ وعدا ذلك فهي تحل بقرارات حكومية ، إذ إن السلطة بالذات أي السلطة السياسية العليا هي التي لها وحدها الحق في تسمية القائمين بالإعلام .

أما في الديموقراطية الغربية فالأمر ليس كذلك . إن الاعلام

(١) الكتاب المقدس العهد القديم ، يشوع ، الاصحاح السادس ، يشير المؤلف هنا الى سقوط أسوار (أريحا) بتأثير أبواق الكهنة ودورانهم حولها سبع مرات .

حر مبدئياً . ولكن الحكومة تملك في الواقع وسائل مختلفة للتأثير فيه وهذا الانتقاص من مبدأ حرية الصحافة (الذي تحوم حوله الشكوك بسبب كيفية تطبيقه) كان يمكن أن تنجم عنه نتائج حسنة فعلاً لو أن السلطة استفادت منه لا لتحريف بعض الأخبار التي تثير الانتقادات ضدها بل لنشر الوقائع التي لا يعرفها الجمهور جيداً .

ولكن الأمر في فرنسا ليس كذلك . فالمعطيات الرسمية التي تجمع بعناية وبصورة موضوعية مثل « حسابات الأمة » ، انما تنشر في شكل لا يمكن معه للرأي العام أن يستخدمها على وجه صحيح هذا اذ لم تخف وتستر .

ومن جهة أخرى : ان حرية الصحافة ، كما قلنا قبلاً وكما نكرر الآن ، مازالت بعيدة عن المثل الأعلى الذي يتضمنه هذا التعبير . فصناعة السيارات مثلاً قد نجحت كما رأينا ، في خلق عقائد راسخة لم يعد من الممكن معها ارجاع الرأي العام عن ضلاله . وعلى وجه العموم فإن امتيازات رأس المال الواسعة تجعله يتمتع بسلطة حقيقية .

إن اهتمام أوساط القيادة ، سواء العامة أو الخاصة ، باعداد الرأي العام لاعتناق وجهات نظر معينة يحول ، إلى حد كبير ، دون اعلامه وتنويره . ثم بالإضافة الى كل ذلك فإن نظام الأحزاب

وقانون الانتخابات قد عملا على قطع كل اتصال بين الناخب والمنتخب ، بل بين الحكومة والبلاد . حتى أن رئيس الوزراء (مانديس – فرانس) لما قام في سنة ١٩٥٤ يخاطب السكان مباشرة بطريق الاذاعة ويشرح لهم دوافع أعماله – مما يعتبر محاولة ديموقراطية حقاً – ظهر القلق والاضطراب على مختلف الكتل البارلمانية التي كانت تعتقد جازمة ، وبسذاجة حقيقية أحياناً ، أن رئيس الحكومة قد تعدى سلطاته وتجاهل البارلمان الذي يحق له وحده أن يتصل بالشعب ويعلمه ما يشاء كما يشاء .

المثال البريطاني :

لاشك أن بريطانيا العظمى تعطينا مثلاً حسناً لما يمكن أن تكون عليه العلاقات بين السلطة والرأي العام وان لم يكن كل شيء في هذه البلاد كاملاً . فالحكومة ، عوضاً عن أن تسعى الى منع الرأي العام من الاطلاع على الأنباء ، تتولى هي نفسها تنويره بصورة دقيقة حتى يستطيع المواطنون أن يحكموا على الأمور . ان « الكتب البيضاء » و « النظرات الاجمالية » التي تنشر في فترات منتظمة تبين بدقة ووضوح الوقائع التي تهم معرفتها ، لاسيما في الميدان الاقتصادي . ولا تتبع هذه الوقائع بالدروس التي يمكن استخلاصها منها حتى لا تفرض نتائج ملائمة للأوساط الرسمية ؛ فالقارىء هو الذي يسعى بنفسه الى استنباط النتائج الضرورية .

وقد ثبت بالفعل أن هذه الطريقة أجدى حتى بالنسبة لمن يمارس الحكم . فالفكر ، إن لم يستعبد كلياً ، يقاوم قليلاً أو كثيراً الاستنتاجات التي يراد فرضها عليه من الخارج ؛ والمواطن يسهل عليه أن يقبل الأعباء المالية وغيرها اذا أدرك فائدتها عن طريق التأمل . كما أن الفكرة التي يعتقد انه قد كشفها بنفسه ينظر اليها بحب الوالد واعتزاز المالك .

ولما كانت الوقائع لا تفرض الاستنتاجات أيضاً بصورة حتمية ، قاسية ، وكان هناك دوماً مجال للتفسيرات المختلفة فان الرأي العام الذي يواجهنا هنا يتصف بالمرونة والتوازن ، بينما تمتاز السلطة على الرغم من ذلك بالمتانة والرسوخ .

من المحتمل أن يكون هذا الاختلاف حول مفهوم التوازن في فرنسا وانكلترا ناشئاً عن الطابع البحري الخاص بالثانية هذا بالاضافة الى تأثير عوامل أخرى .



نظرة اجمالية وخاتمة

بعد هذا العرض المذاهب والمشاهدات نستطيع أن نحاول اصدار حكم على الدور الذي يلعبه الرأي العام في المجتمع .

الشعب يجب أن يعبر عن رأيه :

لنقتصر على الديموقراطية الغربية التي نشأ فيها آخر الأمر هذا التعبير . إنه من الضروري معرفة رأي الجمهور ، أي رأي مجموع الشعب . فالسلطات العامة لم تتلق من الناخبين بيانات كافية للبت في مختلف المشاكل الطارئة . لاشك في أن هذه السلطات لم تحصل على وكالة تحتم عليها الأمر بتدابير معينة ، كذلك لاشك في أنه يجب عليها أن نقترع حسب ضميرها مع مراعاة الحالة الفكرية لدى هؤلاء الذين منحوها الثقة أكثر من مراعاة اولئك الذين قد يفعلون ذلك في المستقبل .

على أن هذه الملاحظات لاتصمد عند الامتحان الحقيقي .

فالشعب لايرضى في أي بلد من البلدان بالتنازل عن كل مهمة في الفترة الواقعة بين دورتين انتخابيتين . ان الحكومة والبارلمان اللذين يعملان دون معرفة رأي الشعب لايتعرضان الى خطر القيام بأعمال لاتنال الموافقة فحسب ، بل يجازفان قبـل كل شيء بسن قوانين أو اصدار مراسيم يستحيـل تنفيذها . ذلك لان التنفيذ يتطلب بالفعل حداً أدنى من الرضى لدى المواطن .

هذا صحيح بالنسبة الى السياسة الداخلية في الدرجة الاولى . أما السياسة الخارجية فان حاجتها الى رقابة الرأي العام أقل (وهي كثيراً ما تستغني عن ذلك بتاتاً) في جميـع الحالات الـتي لا تقتضي فرض أعباء (مالية أو عسكرية أو غيرها) أو التي لا تنذر باخطـار ظاهرة للغاية . ومع ذلك يمكن في هذا الميدان ايضـاً ان ندرك الفائدة التي تترتب على معرفة رأي الشعب .

الصدق :

على ان المشكلة هي أن نعلم : هل تمّ التعبير عن هذا الرأي العام جيداً وهل عرف معرفة تامة ؟ وقد أشرنا الى النقائص التي يمكن ان تنجم عن هذا النظام المشتمل على أخطاء عرضية وأخطاء مبدئية ، مقصودة كما هو الأمر مع كل طرائق القياس .

ونقصد بالأخطاء العرضية : الاصطفـــاء غير الكامل للآراء بسبب عدم المساواة بين الجماعات والأفراد . فان البعض يعربون

عن آرائهم بقوة ، بينما لا تسمع أصوات غيرهم بالمرة . ويترتب على ذلك أن الرأي العام العفوي يختلف عن الاقتراع العام كما يختلف عن آراء جميع الناس . وقد نذهب الى أنه من الأفضل أن نعرف رأي الأشخاص المهتمين حقاً ، إذا لم نقل المشاغبين ، أكثر من رأي غير المكترثين ، لأن فائدة الرأي العام هي بالضبط مساعدة الحكومة على متابعة السير دون أن تصطدم بكثير من المقاومة أو عدم الادراك .

لكن هذا التسويغ البعدي للحالة الواقعية له حدود . فالرأي ما دام عفوياً وفردياً يمكنه ، حتى إذا خضع لعملية الإصطفاء ، ان يعوضنا من نقائص الاقتراع العام بصورة مشروعة ، ثم ان يصبح دليلًا تسترشد به السلطات العامة . إلا أن الأمر لم يكن أبداً كذلك ، بل ان الميل الى (التمركز) يدفع في الاتجاه الفاسد .

عندئذ تحدث الأخطاء المبدئية المقصودة الى حد ما ، يرتكبها اولئك الذين يملكون الوسائل المادية للتأثير في الرأي ، وللتأثير في السلطات العامة بطريق الرأي. وقد دلت التجارب على أن المبالغ الطائلة التي تخصص للدعاوة ، اذا هي أحسن استخدامها ، قد تعود على أصحابها بأرباح كبيرة تفوق كثيراً رأس المال .

ان السلطتين التشريعية والتنفيذية محكوم عليها ، إذ ذاك

بالفشل بتـأثير سلطة الإعلام . وإذا لم تكن المشكلة جديدة حقاً فهي ليست أقل شأناً والحاحاً ، لأنها تعرض النظام الديمقراطي كله الى الخطر .

لاتستطيـع الديمقراطية الغربية التقدم نحو المثل الأعلى الذي تدعي الطموح اليـه الا باصلاح نظام الإعلام اصلاحاً جذرياً عن طريق التوزيـع العادل للسلطات .

فكرة خصبة : الرأي الخالص :

اقترح (الكونت دوباري) أسلوباً بارعاً لمعرفة الرأي العام وذلك بأن ينتخب الفرنسيون البـالغ عـددهم (٤٥) مليوناً (١٥,٠٠٠) مستشاراً على أساس مستشار واحد لكل (٣,٠٠٠) شخص . وعندما يصطدم البارلمان والحكومة بعراقيل ويقعـان في حيرة ويختلفـان في الرأي يجب عليهما استشارة الشهود الخمسة عشر ألفاً بالقاء أسئلة صريحة ، واضحة ، محددة عليهم . مثل هـذا الاستفتاء يمكن القيام به خلال (٢٤) ساعة ودون أن يكلف شيئاً تقريباً .

ان المستشارين الخمسة عشر ألفاً يتابعون حياتهم المعتادة و يظلون غارقين كل منهم في بيئته . وهم حتى لو تم اختيارهم بالقرعة لكان عددهم كافياً للتعبير على أكمل وجه عن مجموع الرأي العام . وعلى الرغم من أن انتخابهم يكاد لا يضيف شيئاً الى صفتهم التمثيلية الا

ان الانتخاب أقرب إلى مدارك الناس .

ذلك أفضل مشروع عملي ، مثمر وديموقراطي أمكن حتى الآن تصوره لمعرفة الرأي العام في بلد من البلدان .

واجبات الحكومة تجاه الرأي العام :

لا تستطيع أي حكومة إهمال الرأي العام بالمرة وإن لم تكن ملزمة بذلك شرعاً . وإذا كان لا يجوز لها ، من جهة أخرى ، ضغط الرأي العام بالدعاوة الشخصية إلا أنه من حقها وواجبها أن تشرف على إعلامه . وبالأخص ينبغي لها أن تشرح أعمالها بكل الوسائل الممكنة وأن تبين في كل مناسبة وبمنتهى الوضوح مقتضيات المصلحة العامة .

إن الإعلام (الرسمي) ، إذا ظل ضمن حدود معقولة ، ليس أشد خطراً من الإعلام الخاص . وعدا ذلك فإن الجمهور الذي يسيء الظن دوماً بالحكومة لا يتأثر كثيراً بدعاوتها . بل إن هذه الدعاوة تمهد السبيل للتشهير بجميع المفاسد ولكن على شرط أن يبقى الإعلام الخاص منافساً يقظاً .

أخطاء الرأى العام وتقاوته :

لقد ارتكب الرأي العام ، سواء أكان عفوياً أم موجهاً ، أخطاء فاحشة المرة بعد المرة في التاريخ المعاصر ، كما اتضح لنا من الأمثلة المختلفة التي ذكرناها . هكذا على الأقل كان يبدو

الوضع للمراقب المدقق ، الحيادي سواء أقام بملاحظة الوقائع حين حدوثها أم رجع اليها بعد مدة من الزمن . بل يمكن القول إن الخطأ كان القاعدة في المسائل الكبرى ، ويجب أن لا نتعجب من ذلك بالنظر الى نقص الإعلام وفساده .

لكن تعبير الخطأ هذا يجب أن يفهم على وجه صحيح . فالرأي العام يفرض علينا أن نتبعه بماله من قوة في ذاته . وحتى في الحالات التي تتصف بالوضوح لخضوعها للمؤيدات الشرعية ، مثل الفترة بين سنة ١٩٣٥ و سنة ١٩٤٠ ، لم يكن من الممكن التصور أن البلاد تسير في طريق « الحقيقة » . فالتباين بين حكومة بصيرة ورأي عام ناقص الاطلاع كان قد بلغ درجة من الصراحة لابد معها من فرض ديكتاتورية قاسية ترافقها أخطاء أكثر فداحة ومغامرات لا تقل كآبة . وهنا أيضاً تنكشف لنا ضرورة الاعلام الصحيح .

على أنه من حق الحكومات ومن واجبها أن تنفصل في ظروف خاصة ولمدة محدودة عن أكثرية أتباعها وأن تسير في الطليعة . إننا لانعني بذلك هنا اصدار المراسيم التشريعية ذات الطابع الاقتصادي (التي تملأ تاريخنا المعاصر والتي كانت موجهة ضد البارلمان أكثر منها ضد الرأي العام) ، بل الفترة الحاسمة بين سنة ١٩٣٨ و سنة ١٩٤٠ التي اشتهرت بقانون الأسرة . فهذا التدبير الذي لا يمكن تقدير أثره في مصير البلاد لم يتخذ ، بصريح العبارة ، ضد ارادة الرأي

العام ، ولكن الرأي العام كان أبعد من أن يطالب بـه كما ان الوجدان القومي لم يكن قد أدرك بعد خطورته تماماً .

ضرورة الاتصالات :

في رواية تمثيلية من عهد ازدهار مسرح (العرائس الكبير) في باريس تشاء المصادفة يوماً من الأيام أن يترك طفل أصم ، أبكم وحده في ملجأ للمكفوفين برهة قصيرة . ومن الواضح أن ليس هناك أي اتصال متبادل بين أصم ، أبكم ، وأعمى .

عندما شعر العميان بحركة غريبة استولى عليهم الخوف ، ولما رأى الطفل الاصم ، الابكم اشاراتهم المعادية أخذ يسعى للدفاع عن نفسه . وفي نهاية الامر استطاع أحد العميان أن يفقأ عيني الطفل بسكينه في اللحظة التي عادت فيها أمه الى المكان .

العبرة من هـذه الفاجعة هي أنه اذا أقر المبدأ الذي وضعه المؤلف منذ باديء الامر فكل شيء يتم بصورة آلية وحتمية . والمشاهد يعتقد ان لاشيء يستطيع عرقلة الامور من ان تسير في مجراها .

وهكذا حال المجتمع . إنه لايمكن ان يعيش في انسجام نسبي الا اذا حصلت اوسع الاتصالات بين مختلف الكتل والفئات ولاسيما المتعارضة منها . بهذا الثمن وحده يمكن ان يتكون الرأي العام على وجه نافع .

الفهرست

مما صدر عن :

وزارة الثقافة والارشاد القومي

اسم الكتاب	المؤلف	السعر ق.س	النـاشر
الدار الكبيرة	محمد ديب	١٢٥	مكتبة اطلس
الجثة المطوقة	كاتب ياسين	١٢٥	دار دمشق
الاعترافات الكاذبة	ماريفو	١١٠	دار دمشق
ابن الفقير	مولود فرعون	١٤٠	دار دمشق
صيف أفريقي	محمد ديب	١٧٥	مكتبة اطلس
النـــول	محمد ديب	١٥٠	مكتبة اطلس
الحـــريق	محمد ديب	١٧٥	مكتبة اطلس
الشـــابي	مصطفى الحبيب بحري	٦٠	مكتبة اليقظة
يحدثونك من القلب	قدري العمر	٩٥	دار الفكر
التعاونيـــات	عدنان شومان	٩٠	دار الفكر
أبنـــاؤنا	حسن ملا عثمان	٦٠	دار الفكر
ثورة الشيخ صالح العلي	عبد اللطيف يونس	١٧٥	مكتبة اليقظة
البورجوازي النبيل	موليير	١٠٠	دار الفكر
توباز	بانيـــول	١٨٠	مكتبة اطلس

اسم الكتاب	المؤلف	السعر ق.س	الناشر
إبك يابلدي الحبيب	الان باتون	٣٥٠	مكتبة اليقظة
أساطير مكسيكية	انور حاتم	٢٠٠	مكتبة اطلس
حياة الفنان فتحي محمد	سلمان قطاية	١٠٠	الفن الحديث العالمي
الوطن العربي	انور الرفاعي	٦٠	دار الفكر
الثوار مروا ببيتنا	عادل أبو شنب	١١٠	الفن الحديث العالمي
من الشعر اليوناني الحديث	ترجمة الياس معوض	٢٥٠	مكتبة اليقظة
ارض السحر	شفيق جبري	٢٦٥	الفن الحديث العالمي
تاريخ الاشتراكية الاوربية	إيلي هاليفي	٤٥٠	مكتبة اطلس
انطباعات مغترب	عبد المسيح حداد	٢٠٠	مكتبة اليقظة
الصواريخ والأقمار الصنعية	وجيه السمان	٢٧٥	مكتبة اطلس
افريقيا الغربية في ظل الاسلام	نعيم قداح	١٦٠	مكتبة اطلس
روضة الورد	سعدى الشيرازي	٦٠٠	الوزارة
محافظة اللاذقية	جبرائيل سعادة	٣٠٠	الوزارة
اتجاهات الفنون التشكيلية	عفيف بهنسي	٣٠٠	الوزارة
قصة الأرض	منير الشريف	٦٠	الوزارة

تصميم الغلاف : الفنان عبد القادر ارناؤوط
الخطوط الداخلية: الخطاط فوزي

٤/ ٢٠٠٠/ ٧/ ١٩٦٢

اشتهر المؤلف الاستاذ (سوفي) بأبحاثه الاحصائية ودراساته الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي يتبع فيها الطرائق الحديثة للمشاهدة والتجريب .

وقد عالج في كتابه هذا مختلف المسائل المتعلقة بالرأي العام فميز العناصر التي يتألف منها والعوامل المؤثرة فيه ؛ وبيّن كيف يتطور الرأي العام ويتبدل . ثم وصف وسائل الاعلام وأساليب الدعاية وجاء بأمثلة متعددة عن تيارات الرأي العام الكبرى في فرنسا منذ الحرب العالمية الأولى وأخيراً استعرض الاساطير التي تسيطر دوماً على أفكار الناس .

والنتيجة الهامة التي توصل اليها هي أن أخطاء الرأي العام ترجع في الغالب الى فساد وسائل الاعلام ونقصها وما ينجم عن ذلك من تشويه للأخبار وقلب للحقائق . وهو يرى أنه من الضروري تنوير الرأي العام واطلاعه على الوقائع وتفسيرها له بصورة موضوعية ومساعدته على التعبير عن نفسه تعبيراً كاملاً صحيحاً .